في اصول المسألة الفلسطينية

بقلم صلاح عيسى

المسألة الفلسطينية (**) هي اهم قضايا العالم العربي المعاصر الحاحا للمعالجة .. واكثرها اثارة للفكر السياسي العربي ، وهي حجر الزاوية في حركة النظم السياسية للدول العربية .

وفي خلال السنوات الخمس عشرة التي مضت على تحول المسألة الفلسطينية من قضية مثاره الى واقع سياسي حاد ، وبعد ان اصبحت « اسرائيل المزعومة » ـ دولة وعضوا في الامم المتحدة ، واجهت النظم السياسية ـ في كل ثم بعض ـ الدول العربية ، هذه القضية بكل ما في نظمها من تناقض وتأزم فاتخذتها ورقة رابحة في الصراع بينها وبين الجماهير العربية ، واذا كان تعداد اشكال العهر السياسي الذي واجهت به النظم السياسية في العالم العربي المسألة الفلسطينية ليس قضيتنا، فان انعكاس هذه الاشكال على الفكر السياسي العربي قد ابعد كثيرا من معالجاته للمسألة عن الرؤية الصحيحة لها ، فاصبحت غير قادرة على تكوين رأي عام يتحرك تحركا حقيقيا تجاهها ، بل وينحرك احيانا ضد ما هو صحيح وحقيقي .

ونحن نوافق على « ان الكتابة في القضية الفلسطينية ، وتكرار الكلام عنها لا ضرر فيهما البته » (١) وايضا فانه « اذا كان تكرار القول والكتابة ضارا ومؤذيا في اي موضوع فان ذلك التكرار مفيد وضروري في القضية الفلسطينية ، حتى تظل الكارثة حية في نفوس الامة » . (٢)

ولكن طبيعة التكرار واتجاهه هي المسألة الاساسية امامنا ، فالكتابة في المسألة الفلسطينية ينبغي ان يكون هدفها الاساسي تكوين جماهير عربية ، وفلسطينية قادرة على فهم قضيتها ، والمطالبة بحل سليم لها ، دون انحراف يبعد بحركة الجماهير العربية عن مطالبها ويمنع الوصول الى حل حقيقي لها .

ان المسألة الفلسطينية واحدة من اهم قضايا النضال العربي المعاصر ، وفيها تتكثف بصورة واضحة نكبة العالم العربي بالاستعمار .. وهي بوجودها الحاد تشكل واقعا استفزازيا للقوى المناضلة ضد الاستعمار العالمي ،ومن هنا فان فهمها خارج اطارها ضياع لطاقات يمكن تجميعها لاداء دور ثوري على المستوى التاريخي .

***

ازمة فكر انعكاس لازمة واقع

كان وقوع الفكر السياسي في خطأ « الفهم الديني » هو النتيجة الطبيعية للاوضاع الاقطاعية للعالم العربي عقب الحرب الاولى ، ومع بداية ظهور المسألة الفلسطينية على مسرح الاحداث .

ان محاولة تفسير المسألة باعتبارها « مسألة اسلامية » هو اول واقرب التصورات التي وضحت وقد ساعد على هذا ان الحركة الوطنية الفلسطينية نفسها قد وقعت تحت قيادة دينية لفترة طويلة وحاولت هذه القيادة ، وما وراءها من مصالح اقطاعية ، صبغ القضية بالصبغة المذهبية فتعددت المؤتمرات التي تحاول ان تجعل من القضية قضية المسلمين في جميع انحاء العالم .

والخطورة العامة لعدم فهم المسألة الفلسطينية ، تتولد من ان عدم الفهم ـ حتى مع الفرض المستحيل بعدم توافرنية استغلاله ـ لا يكون جماهير قادرة على فهم القضية والتحرك تحركا حقيقيا تجاهها .

الا ان خطر الفهم الديني يتأكد في :

● ان الفهم الديني يخلق للشعوب العربية ، وللشعب الفلسطيني بالذات ، حلفاء وهميين فهو يضع في صفة ٤٠٠ مليون مسلم ، في حين ان الخيانات التي منى بها الشعب الفلسطيني قد نبعت من مسلمين، بل ان القيادة الدينية التي كانت تقود حركة التحرر القومي العربي خلال الحرب الاولى وبعدها قد وافقت على خيانة الشعب الفلسطيني فقد (كتب الامير فيصل ابن الشريف حسين وملك العراق فيما بعد ـ بيانا في جريدة جويش كرونيكل « بتاريخ ١٤ اكتوبر ١٩١٩ وهذه الجريدة لسان حال الجمعية الصهيونية في انجلترا » يقول : نحن نسعى لننشىء امبراطورية عربية تتألف على الاقل من العراق وسوريا وفلسطين ، فأناشد اليهود ، وهم ساميون قبل العرب طالبا معونتهم في انشاء المملكة العربية حتى اذا كثر عدد اليهود في فلسطين يتيسر لنا ان نجعلها ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة العربية) . (٣)

● كذلك يعزل هذا الفهم قوى الشعب الفلسطيني غير المسلم عن النضال ، وقد استغل الاستعمار هذا القصور في الفهم ، وحاولت مشروعاته منذ صدور وعد بلفور حتى قرار التقسيم ان تضرب الوطنية الفلسطينية بتقسيم طائفي ، وفي الكتاب الابيض عام ١٩٢٢ ـ وضع الانكليز نصا بتشكيل مجلس تشريعي من ٢٢ عضوا منهم ١٠ من الموظفين الانكليز ، و٨ من المسلمين ، و٣ من المسيحيين ، و٢ من اليهود .. بل « فقد بلغ من امر المستعمرين ان بذلوا جهودا جبارة لاثارة روح الطائفية والخلاف الديني بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين لدرجة ان بعض رجال الاستخبارات من المستعمرين أخرجوا من السجون بعض المجرمين والفوا منهم عصابات زودوها بالسلاح ، وخصصوا لها المرتبات والنفقات واطلقوها للاعتداء على القرى المسيحية واغتيال المسيحيين ، اثارة لروح الفتنة وللايقاع بين ابناء الوطن الواحد » . (٤)

وفي نفس الوقت يعزل هذا الفهم القوى المعادية للاستعمار سواء أكانت دولا او قوى اجتماعية داخل دول ـ عن المعركة ، فالفهم الديني لا يضع هذه القوى وضعها كحليف فقد تكون مسيحية او بوذية او لا تؤمن بالله .

وكان الفهم الديني هو المسؤول عن عدم تحويل المسألة الفلسطينية الى مسألة ممكنة الحل في بعض الظروف ، فقد استغل هذا الفهم التعصب الديني لدى المسلمين ولدى اليهود لخلق حرب دينية رهيبة خلال الفترة من الانتداب حتى حرب فلسطين ، الامر الذي منع القوى الديمقراطية في فلسطين والبلاد العربية من فرض رأيها بوجوب انهاء الانتداب البريطاني وانشاء دولة ديمقراطية في فلسطين كما استغل الاستعمار البريطاني هذا التعصب في تحويل « الحركة الوطنية من حركة سياسية ضد الاستعمار الى حركة دينية وعنصرية ضد اليهود »(٥)

وينطلق الفهم الديني ايضا ليناقش قضية صحة او عدم صحة الوعود الموجودة في التوراة بشأن عودة اليهود الى فلسطين ، ويحاول باستمرار ان ينكر صحة هذه الوعود ، وهذا في الواقع ابتعاد بالقضية

عن اصولها ، فالكتب الدينية تحفل بمناقضات بينها وبين بعضها ـ من وجهة النظر المجردة ـ ففي الوقت الذي ينكر فيه الموسويون الشريعة العيسوية ، والشريعة المحمدية ، ينكر فيه العيسويون شريعة محمد ، وتعترف الشريعة المحمدية بعيسى وموسى ولكنها تنسخهما ، وعلى هذا فاثبات صحة او عدم صحة الوعود الموجودة في التوراة ، يدل على سذاجة فكرية ، فالصهيونيون يستغلون وعود التوراة لاخفاء رغبتهم في تصدير رساميل الى فلسطين .. ومن الحمق ان نعتقد ان اقناعهم بزيف الوعود ، يجعلهم ينفضون عن الاستعمار ، ويضاف الى هذا كله ان اي عقل بسيط يدرك انه اذا كان الله قد اعطى الصهيونية العالمية حق استعمار فلسطين فهو بلا شك اله مزيف !!

والهجوم الديني على اليهودية يعطي فرصة للدعاية الصهيونية لكي تثير قضية الاضطهاد التي تعتمد عليها ..

... ليس هذا فقط ما يعطي الفكر الصهيوني فرصة لتأكيد ذاته، فالفكر السياسي العربي يخرج من الفهم الديني ليقع فريسة للفهم القومي المتعصب ..

***

تضع الرؤية الشوفينية المسألة الفلسطينية باعتبارها صراعا بين قوميتين ، وبهذا تقع في خطأ اعتبار « المسألة اليهودية » مسألة قومية ، وهو ما تنفيه احيانا ، وانطلاقا من هذا المفهوم تحاول اثارة البغضاء ضد اليهود متناسية ان اليهودية شيء ، والصهيونية شيء اخر ، ف «النظرية الصهيونية القائلة بان اليهود بصفتهم اليهودية ينتمون الى قومية قائمة بذاتها وعلى ذلك فيجب ان تكون لهم دولة يهودية » (٦) تختلف عن اليهودية نفسها ، فاليهودية دين ، واليهود في أي دولة مواطنون بها « وليسوا اعضاء لجالية يهودية قائمة بذاتها تتميز بمصالحها الدنيوية التي تختلف عن المصالح الدنيوية لرفقائهم الذين يدينون بعقائد اخرى»(٧)

ويحاول هذا الفكر تقديم صورة وراثية لليهودي ، وصفات خلقية خاصة به ، فاليهودية عنده هي « ذلك الخلق الذميم الذي تأصل في طائفة من العبريين منذ اقدم العصور وجعلهم بغضاء منبوذين في كل مكان اقاموا فيه او دخلوه (٨) « و » خلق العدوان والادعاء والانانية هو داء قديم في هؤلاء القوم لم يفارقهم قط في عهد من عهودهم التاريخية ، ولا شك انه كان ملازما لهم زمنا طويلا قبل ظهورهم على مسرح التاريخ»(٩)

واليهودية ايضا « بغيضة الى كل الناس ، بغيضة في كل بلد ، بغيضة في كل زمن ، بغيضة في الزمن الحديث ، لا يحبها ولا يعطف عليها احد » . (١٠)

وينكر هذا الفكر الحقائق التاريخية عن اضطهاد اليهود ويقرر ان اليهودية « هي المسؤولة عن كل اضطهاد نجره على نفسها وعلى ابناء دينها » (١١) لانها « لو وجدت في عالم الملائكة لما كان لها فيه نصيب اكرم من هذا النصيب » . (١٢)

ويحاول الشوفينيون استغلال العداء للصهيونية ـ باعتبارها حركة عميلة للاستعمار لاخفاء عدائهم للفكر التقدمي ، ففي تحليلهم ان الصهيونية (قد اشتركت في كل حركة من حركات الهدم والتدمير ، واخر ما اشتركت فيه ولا تزال مشتركة فيه ـ حركة الشيوعية في العصر الحديث .. وربما كان الصهيوني من اصحاب الملايين ولكنه يحرص على نشر الشيوعية ويمولها بالمال والدعاية ويواليها بالدسائس والمؤامرات في مجتمع السياسة الدولية ولا حاجة الى اكثر من سرد الاسماء لاظهار الايدي الخفية من وراء هذه الحركة في ابانها وليست هذه الايدي الا ايدي الصهيونية العالمية ـ في كل مكان ، كان رئيس الدولة الشيوعية الاولى في العالم كله زينوفييف وكان رئيس البوليس السياسي ياحودا ، وكان وزير الخارجية لينفينوف ، وكان ترتسكي وكابنيف وتومسكي وريكوف وكاجانوفيش على رأس الدولة السوفياتية ، ولينين كان نصف يهودي يسمى ايليانوفتش ومن المعلوم قبل هذا كله ان امام الشيوعية الاول هو كارل ماركس اليهودي) . (١٣)

وليس الشيوعية فقط هي حركة التدمير الوحيدة التي خلقها الصهاينة فالاستاذ العقاد يرى انه « لن تفهم المدارس الحديثة في اوروبة ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي ان اصبعا من الاصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية وترمي الى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الانسان في جميع الازمان فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الاخلاق والاديان واليهودي دوركيم ورء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الاسرة بالاوضاع المصطنعة ويحاول ان يبطل اثارها في تطور الفضائل والاداب واليهودي او نصف اليهودي سارتر وراء الوجودية فجنح بها الى حيوانية تصيب الفرد والجماعات بآفات السقوط والانحلال » ولا يسلم من تحليل العقاد فرويد او انيشتين !!. (١٤)

الفكر الشوفيني يقع ايضا في محاباة الاتجاهات اليمينية التعصبية فهو يرى ان « جماعة منظمة تكافح الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة تستطيع ان تقهرها وتمحو اثرها ولو لم تبلغ مليونا واحدا يحاربون خمسة ملايين ، ولقد وجدت الجماعة التي تكافح الصهيونية فعلا اثناء الحرب العالمية الاولى ـ وهي الجماعة التي اطلقت على نفسها اسم كوكلكس ـ كلان ku — klux — klane وعاشت بضع سنوات » (١٥) ويتأسى لان « هذه الجماعة القوية وسعت حملتها وشنت الغارة على اعداء اربعة بدلا من عدو واحد ، فجعلت في همها محاربة الزنوج ومحاربة التابعين للكنيسة الرومانية ، ويحاربون الاشتراكيين والشيوعيين ومحاربة اليهود ، ولو انها قصرت محاربتها على الصهيونية لقضت عليها عنوة »(١٦)

والواقع ان الفكر الشوفيني بمنهجه ذاك يقع في عدة خطايا .

● فهو يقع في خطيئة المواقفة على ان اليهودية قومية رغم انكاره لذلك احيانا ، وهو يسلم بموقفه ذاك للحركة الصهيونية الاستعمارية باقوى حججها واقلها ثباتا امام النقاش العلمي.

● وهو بهجومه على اليهودية يعطي دليلا على الاضطهاد العنصري من ناحية ويفقد عطف اليهود المناوئين للصهيونية من ناحية اخرى ، يقول المجلس الاميركي لليهودية « لم يعتبر اليهود جنسا ما في يوم من الايام . وقد كان من الممكن في اي عصر غير عصرنا هذا ، وفي اي بلد غير الولايات المتحدة ان يختاروا شيئا يختلف الى حد ما عن مناصري ديانة معينة فربما كانوا امة او اقلية من المثقفين او جماعة سلالية ، ونحن هنا في الولايات المتحدة وفي القرن العشرين لا نقبل أي تعريفات اخرى لليهودية او لليهود ، فاليهودية دين والمجموعة التي تعرف باليهود يجب ان تكون ويجب ان تتعرف كجماعة تتمتع بحرية يفرضها الاختيار الفردي ، فاليهودية بصفتها عقيدة اخلاقية على مستوى عال يجب ان تسمو على الحدود القبلية والقومية ويجب ان تقوم على اساس مبدأ الاختيار غير المفروض » . (١٧) .

وبهذا يقع الفكر الشوفيني في خطيئة استبعاد حلفاء حقيقيين للدفاع ضد الصهيونية في الوقت الذي يتوهم فيه الفكر الديني ملايين الحلفاء الخياليين .

● واستبعاد اليهود الحلفاء من المناوئين للصهيونية يستبعد ايضا القوى التقدمية العالمية والقول بان الصهيونية هي القوة الدافعة للحركة الشيوعية لمجرد وجود بعض اليهود في قيادتها ، قول ناضح بالجهل ، فضلا عن انه ليس مثالا يؤكد روح الهدم عند اليهود ، والشيوعية قد بنت بلادا يبلغ تعداد سانها اكثر من نصف سكان العالم ، والمثال هنا ينقلب لصالح الصهيونية فالحركة الصهيونية اذا كانت قوة دافعة للشيوعية العالمية فهي اذن حركة بانية وتقدمية الى اخر مدى .

لقد اعلن الفكر الماركسي موقفه من قضية القومية اليهودية منذ بدء ظهوره فكتب ماركس كتابه « المسألة اليهودية » وقال لينين « ان الحركة الصهيونية في جوهرها حركة خاطئة ورجعية بصورة مطلقة ، وان فكرة القومية اليهودية ذات صبغة رجعية سافرة لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب بل وكذلك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الافكار الاشتراكية » . وقال خروشوف « من غير الصحيح اتهام الشيوعيين بانهم يعملون ضد مصالح الشعوب الغربية الوطنية ومن السذاجة ايضا وضع الشيوعية والصهيونية على صعيد واحد . فمعلوم تماما ان الشيوعيين ومنهم شيوعيو اسرائيل يناضلون ضد الصهيونية » . (١٨)

● والفكر التعصبي في يمينيته المنحرفة يتجاهل باستمرار الاعداء الحقيقيين ، بل ويتحالف مع اشد الاعداء ضراوة ، وهذا ما حدث عندما حاولت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية التحالف مع النازية خلال الحرب العالمية الثانية لمجرد ان النازية تضطهد اليهود . وبينما يشن العقاد الحرب على اليهود ينسى البيونات المالية الضخمة التي تحرك سياسة الولايات المتحدة لتأييد الحركة الصهيونية ويرى انها تزج بالدولة الاميركية في « مآزق » ! كأن المصلحة الصهيونية ليست هي مصلحة الرأسمالية الاحتكارية في اميركا ..

● ومع افلاس هذا الفكر يحاول ان يناقش قضية عنصرية اليهود، ليحاول دراسة ما اذا كان يهود العالم المعاصر هم سلالة يعقوب حقا ، أم انهم اصبحوا سلالة مختلطة لا ترتبط بيعقوب بسبب ومحاولة نفي صله اليهود بيعقوب محاولة عقيمة ، لانها رغم ظهورها في دعاية الصهيونية تبعد بنا عن جوهر المسألة الصهيونية الاصيل ... الاستعمار العالمي ، ولان العرق او السلالة لم يعودا من مقومات القومية .

***

وليس من الصعب على اي حال ادراك السبب في انتهازية الفكر السياسي العربي بالنسبة للمسألة الفلسطينية ، فهي انعكاس طبيعي لوضعية المسألة بين فضايا الصراع في مرحلة ظهورها واهتمام الفكر السياسي بها ، وهو ما سنعالجه بالتفصيل عند حديثنا عن تناقضات الواقع العربي المتحركة في مواجهة المسألة .

***

والمسألة الفلسطينية هي مسألة فلسطين بكيانها الجغرافي والتاريخي ، فهي مسألة حقوق اللاجئين الفلسطينيين وحقوق الشعب الفلسطيني ، وهي مسألة الدولة الاسرائيلية ، وهي ايضا واساسا مسألة الاستعمار العالمي ..

ولربما كان الاغراق في تقديم تفصيلات المسألة جزءا من محاولة القضاء على اصولها ونحن هنا ـ بعيدا عن التفصيلات الا الضروري منها ـ نحاول الانطلاق لفهم « اصول القضية » وبمعنى آخر ، جذورها التي صنعتها التطورات التاريخية ، والاجتماعية ومن الطبيعي ان تفسير هذا الوضع هو الاساس الذي ينبغي ـ في رأينا ـ حل القضية في اطاره ..

ونحن امام ثلاث قوى متفاعلة فيما بينها ، وقد شكلت الجذور الاصيلة للمسألة .. فنحن امام الصهيونية العالمية كحركة تعصبية رومانتيكية عن حلم الاقلية اليهودية في الحصول على عدالة فقدوها في الاضطهادات المتوالية ونحن امام الاستعمار العالمي في مرحلة الامبريالية اي في مرحلة الازمة الحقيقية لوجوده ومحاولة البحث عن فرص جديدة تمكنه من البقاء وتتيح له التغلب على مشاكله ، ونحن اخيرا امام الواقع الفلسطيني في مرحلة النمو الرأسمالي والانفلات من اسر الاقطاعية ، يتحرك معه الواقع العربي في مرحلة من ادق المراحل التطورية في حياته .

في داخل هذه القوى ، تصخب الحركة ، وتخفت ، تسير هادئة احيانا مجللة بأحزان الوداع والصمت والضياع ، وتنفجر احيانا اخرى بالغضب الثائر .. والانطلاق الهادر بغير حد .

***

رومانتيكية عصر الامبريالية

كان « الحلم » هو الموكبة المستمرة لحركة التاريخ البشري ، وعندما عجز العلم ـ في بداية التاريخ ـ عن تفسير الاشياء ، تكفلت الاحلام بتفسير غامض ، وظل الحلم بعد ذلك يؤدي وظيفته ، فاصبح سلاحا رائعا للذين لا يعرفون ارضية ازمتهم ، وللذين يحرصون على عدم معرفة الاخرين لاسباب الازمة .

وكان اليهود بعض ضحايا « الحلم » . وعندما دارت محاريث الرومان في بيت المقدس تزيل ارض الشعائر الدينية لليهود .. وتحطم احلامهم البدائية الساذجة ، ثم تطردهم مشردين ، هائمين على وجوههم ، التقط العقل البشري الحائم قصة اليهودي التائه كتعبير ممتد عن الضياع والتشرد ، واللاامل .. واختلطت الحقائق بالاساطير بالاكاذيب تتخلق ميراثا كاملا من الاحزان .

وهكذا عاشت الاقلية اليهودية في حلم طويل ان تجد العدل في مجتمع يضطهدها ـ في مكان اشبه بالخرافة هو فلسطين ارض الميعاد والعدل والسلام وحلمهم هو نفس الحلم الذي يراود المسلم والمسيحي لمكة او لبيت المقدس ، الحلم القديم الذي يلجأ اليه الذين لا يعرفون ارضية ازمتهم ..

امتلأت مزامير دواود بترانيم العودة .. وغنى لورد بيرون الشاعر الانكليزي الكبير ، « ان للحمامة البيضاء عشا صغيرا وللثعلب وكرا ، ولكل انسان وطنه ، الا اليهود فلهم القبور » .

وفي عيد الفصح .. ومع انتهاء فترة التوبات يتبادل اليهود في جميع انحاء العالم التحية فيما بينهم قائلين : « الى اللقاء في اورشليم العام القادم » . (١٩)

رومانتيكية الحلم .. هي التي حولت اليهودية الى وطن بعدما كانت دينا !..

***

وتحفل اسفار العهد القديم .. وهي الكتب الدينية التي يعتمد عليها اليهود في اثبات دعواهم بان عودتهم الى فلسطين احد الحقوق التي كفلها لهم « يهوه » او الدب ـ بالعديد من هذه الوعود ! يقول الاصحاح الاول من سفر يشوع « وكان بعد موت موسى عبد الرب ان الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدي قد مات فالان قم اعبر هذا الاردن انت وكل هذا الشعب الى الارض التي انا معطيها لهم اي لبني اسرائيل كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » .

وثمة ملاحظة هامة لمحمد عزه دروزة فهو يرى ان الاسفار تحفل بالغلو والمناقضات والمفاومات الكثيرة وان احداث موسى وما بعده قد دونت في ظروف مقاربة لحدوثها ويصح ان تكون محل اعتماد وتحفظ ، فتداول الروايات شفويا ردحا من الزمن والخيال والتعصب وظروف التدوين كلها كانت ذات تاثير قوي فادى ذلك الى الكثير من المناقضات والمفارقات والغلو ... » . (٢٠)

ان احداث الاضطهادات لدينية المتوالية قد ملأت اسفار العهد القديم بادعاءات ووعود خرافية .. وصنعت اخطر من هذا .. حولت اليهودية من دين الى قومية والخطورة الحقيقية لازمة الاقليات الدينية والعنصرية هو هذا الخلط بين الدين والقومية ذلك ان الاضطهاد الذي تلقاه الاقليات ، والذي ينجم دائما ـ في الاقليات الدينية ـ من ربط المسجد او الكنيسة بالدولة ، ينعكس هذا الارتباط على التشريع وحماية حق العبادة والضرائب ، وحق توليه المناصب الرئيسية ، هذا الاضطهاد يتحول الى خلط في الفهم يقلب الدين الى قومية ، خاصة وان القيادات التي تتقدم للدفاع عن حقوق الاقليات كثيرا ما تقع بين براثن فكريات البرجوازية الصغيرة .

***

واذا كنا لا ننكر الاضطهاد الديني الذي تعرض له اليهود فاننا لا نستطيع ايضا ان ننكر « انهم تمتعوا في فترات مختلفة من تاريخ اوروبا بتأييد بعض الحكومات ونفر من الحكام كما ان الاضطهاد الذي لقيه اليهود في الفترات التاريخية المضطربة لم يكن ذا لون واحد لا يتغير : ان رجال الكنيسة الاقطاعية كانوا يوجهون تهما دينية الى اليهود في العصور الوسطى في حين ان الفريد روزنبرج دعا الى كرههم عنصريا » . (٢١)

كذلك يعترف المؤرخون « ان البلاد الاسلامية كانت من التسامح نحو اليهود حتى انهم لم يضطروا كما فعلوا بين غير المسلمين في اغلب

مدن اوروبا من ان يعيشوا في حي خاص مظلم قذر غير صحي » . (٢٢)

وينبغي هنا ايضا ان نشير الى ملاحظتين هامتين :

● ان التحليل القائل بان اضطهاد اليهود ناتج اساسا وبـــلا اي اسباب اخرى « لنفسية اليهودي » و « لروح التدمير الكامنـة فيـــه » تحليل غير علمي ، فانعزال اليهود في احياء خاصة مظلمة قذرة كـــان احدى نتائج الاضطهاد الديني وليس سببا فيه ، واشتراك اليهود فـــي المجتمع كان ينتهي بسرعة في حمى اضطهاد جديد يقول هرتزل في كتابه « الدولة اليهودية » ان اليهود يمكن ان يندمجوا في الشعوب التـــي يحيون بين ظهرانيها لو انهم تركوا في سلام مدى جيلين كاملين ولكـــن الفرص لا تتوفر لهم .. ، كذلك فان اشتراك اليهود في الثورات كان دليلا على حيويتهم ، ودليلا ايضا على مدى تطرف الاضطهـــاد الذي كانـــوا يعانونه ، وكانت هذه الثورات كما كان السكن في احياء خاصة ـ سببا ونتيجة للاضطهاد .. وفي التاريخ الاسلامي اشترك اليهود فـــي ثورة القرامطة في العصر العباسي الثاني وفـــي ثـــورة الزنج وهمـــا ثورتـــان تحريريتان قادهما الفلاحون ضد اقطاع الدولة العباسية .

● ان القول بان اضطهاد اليهود كان بسبب الدين فقط قول مغالى فيه ، صحيح ان الدين اليهودي كان موضع اضطهاد في بعض العصـــور وخاصة من الدين المسيحي الذي يعتقد اتباعه ان اليهود هم قتلة السيد المسيح وان عليهم يقع دمه ففي الانجيل (فلما رأى بيلاطس انه لا ينفع شيئا بل بالحري يحدث شغب اخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا ، اني بريء من دم هذا العار . ابصروا انتم فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى اولادنا ، حينئذ اطلق لهم باراباس ، واما يسوع فجلده واسلمه ليصلب) وفي صلاة الجمعة الحزينة يتردد قول « فلنصل مـــن اجل اليهود الغدارين « فالقاضي الروماني الذي حاكم المسيح قد برأه من التهم الموجهة له من اليهود . وقال انني بريء من دم هـــذا البار ، وعلى هذا لا يمكن تحميل غير اليهود المسؤولية . واذا كان القاضي لـــم يملك الا ان يسلم المسيح للغوغاء فلانه لم يستطع تحمل مسؤولية قتلـــة ظلما ، ورد اليهود على القاضي كان حاسما بتحميل انفسهم وابنائهم هذه المسؤولية التاريخية بقولهم « دم علينا وعلى اولادنا » كمـــا ان اضطهـــاد اليهود للمسيح امر لا يمكن انكاره بحال من الاحوال ويكفي مـــا صوره الانجيل في قوله ، فعروه والبسوه رداء قرمزيا وضفروا اكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه ، وكان يجثون قدامه ويستهزئون بـــه قائلين السلام يا ملك اليهود ، وبصقوا عليه واخذوا القصبة وضربـــوه على رأسه . (٢٣)

واذا كانت الجمهرة المسيحية قد وقعت ضحية هذا الوهم فـــان حملات اضطهاد اليهود التي كانت تمارسها اجهزة الدولة كانت تستتر بستار ديني ، مخفية وراءها اسبابا اخرى ، هي التناقضات الحادة التي تعيشها هذه النظم ، ومحاولتها الدائبة لالهاء جماهيرها .

وتاريخ اليهود المعروف يدل علـــى ان القبائل اليهودية عاشت معيشة قبلية متنقلة في الفترة التي كان فيه تطور المجتمعات لا يسمـــح بوجود فئة تجار خاصة في كل منها ، فبرعت القبائل العبرانية فـــي التجارة ، حتى استقرت في فلسطين ، وكان موقعهـــا الجغرافي اذ ذاك يجعل منها مركزا تجاريا ناميا ، وفيها نمت تجارة العبريين (٢٤) وازدهرت والتصقت بهم التجارة كوظيفة خاصة بهم وانتشر كبار تجارهم عقـــب الغزوات المتتالية التي مرت على هذه المنطقة من بلاد العالم ، وبقـــي صغار التجار فيها ، وفي المراكز التجارية التي هاجروا اليها اتى اليهود « بشكل ارقى من اشكال الاقتصاد المالي والتجاري بسبب خبرتهـــم الطويلة وعلاقتهم بعضهم ببعض تلك العلاقات الاقتصادية التـــي كانـــت ترسخها العقيدة الدينية ، فاليهود مثلا هم الذين اخترعوا النظام الـــذي يسمح لشخص معين بأن يأمر شخصا أخر بدفع مبلـــغ مـــا الى شخص ثالث وهو النظام الذي يطبق يوميا الى الان في العلاقات التجاريـــة والمالية » (٢٥)

وبانتقال المجتمع الاوروبي من نظام الاقتصاد العبودي الى النظـــام الاقطاعي مر اليهود بمرحلتين :

● في المرحلة الاولى حتى القرن الثالث عشر وهي المرحلة التـــي تطور فيها شكل الملكية في المجتمع واعيد توزيع الاراضي التي استولـــى عليها الغزاة ، كمـــا تمت عمليات التقسيم داخل الدولة بتحول السيـــد الاقطاعي الى شخصية مستقلة عمليا «فاصبح يقيم في املاكه على اقتصاده المغلق ويتمتع بحق وجود اتباع يعملون تحت امرته وهو يعيش على عمل فلاحين » (٢٦) . كان هذا اساس اقامة اليهود في احياء خاصة « وليس هذا بغريب بالنسبة للحياة الاقطاعية فقد كان تقليدا هاما ان يستأثـــر الاجانب بأحياء خاصة فللطليان حي وللهولانديين حي ايضا ، وللبرتغاليين حي ثالث وهكذا » (٢٧)

وقد ظل الحي الخاص أو « الغيتو » هـــو رمز المجتمع اليهودي بفعل الاضطهادات المتوالية ..!

في هذه المرحلة ايضا نمت التجارة ، فقـــد كانت العملة تنقص التجارة ، ثم خلقت الحاجة انواعا من العملة ، ولم تكن هذه الانواع كلها كاملة القيمة اي انه كثيرا ما كانت كمية النحاس او القصدير اكبر مـــن المعدن الثمين ، ونظرا لاختلاف العملات فقد عادت مهنة الصرف مـــن جديد ثم تحول الصرافون الى اصحاب بنوك بطريقة مماثلة . (٢٨)

« وبتطور الاقتصاد الاقطاعي انتقلت المراكز الاقتصادية من شواطىء البحر الابيض الى بلاد اوروبا الغربية فانتقل اليهود بانتقالها ، وظهـــروا في باقي المدن الفرنسية وفي انجلترا والمانيا وهولاندا يأتون اليها بخبرتهم التجارية الواسعة التي يتوارثونها جيلا بعد جيل وعلينا ان نتصور التاجر اليهودي في هذه العصور بشكل تاجر صغير وسيط او مراب ، كمـــا نتصوره الان في الغالب ، فقد كان اليهود في ذلـك الوقت ذوي اتصال مباشر بالانتاج وبنقل البضائع وتخزينها » . (٢٩)

وفي نهاية هذه المرحلة ، بدأ المجتمع ينتقل تدريجيا الى الرأسمالية، وبدأ التناقض في العلاقات الاجتماعية بين الاقطاع والبرجوازية يأخـــذ شكل الازمة ، فقد كانت التجارة تحتاج الى الائتمان « ولكن الكنيسة كانت تدين الاقتراض بفائدة باعتباره نوعا من انواع الربا ، وكانت هذه الادانة تستند الى اعتبارات دينية وخلقية غير انها كانت في الواقع دفاعا عـــن الملكية العقارية التي تهددها سلطان النقد المتزايد ، وتماما كما ناهضت الكنيسة بشدة حركة تحرير المدن التي تهدد سلطة الاساقفة اعترضت ايضا على المؤسسات التجارية اذ رأت فيها وبحق عنصرا متحركا ثوريا ، ولكن المقتضيات الاقتصادية اقوى من القواعـــد الاخلاقية فاستخدمت مختلف الوسائل للتحايل على المحظورات الدينية : ومن المظاهـــر الغريبة لهذا الكفاح من اجل التقدم التجاري الدور الذي قام به اليهود ، اذ كان من حقهم الا يتقيدوا بهذه المحظورات الدينية بسبب دينهم ، وهكـــذا اصبحت ـ القروض بفائدة مسموحا بها » . (٣٠)

وهكذا اضطهدت الكنيسة المسيحية اليهود دفاعا عن مصلحة كبـــار الملاكين العقاريين .. وحاربتهم ، واخرجت من الكهوف الاقوال القديمـــة للانجيل !!

وفي القرون الثلاثة الاخيرة من عصر الاقطاع ،وهي القرون التـــي شهدت « تطور المجتمع الاقطاعي حيث ظهرت بوادر العلاقات الرأسمالية، هذه الفترة من العهد الاقطاعي رأت نشوء طبقة التجار غير اليهود ، طبقة فرنسية في فرنسا ، وهولندية في هولاندا واسبانية في اسبانيا ... الخ وكان طبيعيا ان تصطدم هذه الطبقة الناشئة بالفئة اليهودية الخاصة التي تنافسها ، لذلك اشتهرت هذه الفترة بالحركات الواسعة النطـــاق التي كانت ترمي الى ابعادهم من تداول السلع وفصلهم عن عمليات الانتاج المباشرة .

وهنا بدأ بؤس اليهود وتحولهم مـــن تجار وماليين ميسورين الـــى وسطاء صغار لا يكادون يعيشون الا عن طريـــق المهـــن الصغيرة ، وهنـــا ايضا بدأت تنقلات اليهود القلقة من اقصى اوروبا الى اقصاها لا يمكثون في بلد من البلاد فترة وجيزة الا وتقوم ضدهم القومات الدموية فيرحلون الى بلد اخر وهكذا . »

لقد تحولت البرجوازية في فترة نموها الى سرقة صريحة تهدف الى « انتزاع كل ما حققه اليهود تدريجيا من ارباح بضربة واحدة ، وهذه

الروح الخبيثة تجاه العمليات التجارية التي كان اليهود يقومون بها في العصور الوسطى ، تعتبر احد المصادر الرئيسية التي نبع منها التعصب ضد اليهود ، ويقر كاليت ذلك اذ يقول « ان خوف الرأي العام في العصور الوسطى من اقتراض المال ، ذلك الخوف غير المعقول هو الذي خلق في وقت واحد ميل اليهود للشؤون الاقتصادية والشعور العدائي نحوهم » (٣١)

ثم كان تطور المجتمع في المرحلة الرأسمالية ، عندما استطاعت البرجوازية ان تحقق ثورتها ، ونما فكرها ، وارتفعت صيحات فولتير وديدرو وروسو تنادي بالحرية ، وكانت تلك بداية « الفترة التي هضم المجتمع فيها اليهود ، فلم يعودوا يكونون فئة اجتماعية خاصة منفصلة عن بقية الطبقات الاجتماعية ، وبهذا الشكل اصبح التاجر اليهودي والمصرفي اليهودي لا يختلفان في شيء عن التاجر او المصرفي الكاثوليكي او البروتستانتي بعد ان اقرت الثورات المختلفة في انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا مساواة الاديان امام القانون . وبتحرير اليهود وجد منهم لوردات « مونيفيوري » ورؤساء وزارات يهود «دزرائيلي » «بلوم» وبذلك اندمجوا في اوروبا الغربية وامريكا بسائر الفئات البشرية » . (٣٢)

وظهرت في القرن التاسع عشر ، محاولات لفهم المسالة اليهودية في ضوء جديد وكان بعضها بطبيعة المرحلة بعيدا عن الرؤية المنطلقة للمسألة بأكملها ، وعندما طالب اليهود الالمان بالتحرر السياسي ، كانوا يعبرون ـ كما يرى بوير ـ عن اصلب شكل من اشكال التعارض بين اليهودي والمسيحي وهو التعارض الديني . وهتف بوير : ان علينا حل التعارض بجعله مستحيلا وعندما لا يرى اليهودي والمسيحي في الدين الخاص بكل منهما الا درجات مختلفة من تطور العقل البشري والا جلود افاع تتجرد منها الافعى التي هي الانسان فلن يجدا نفسيهما من بعد في تعارض ديني ، وانما في علاقة نقدية بحتة ، علاقة علمية بشرية .

ويلاحظ ماركس ـ بفكر مضيء ـ ان بوير خلط بين الدين والدولة وان الاساس في الاضطهاد الديني لليهود هو اساس دنيوي بحت ، وان التحرر اليهودي جزء من التحرر الاجتماعي للمجتمع البشري بأكمله وان الغاء الدين ليس هو الحل الذي يقضي على بقية التناقضات التي تخلق اضطهاد اليهود .

هكذا استطاعت الثورة البرجوازية في اوروبا ان تقضي على احد اشكال اضطهاد ـ اليهود مؤقتا فسقطت جدران الغيتو الكئيبة الى الابد وبالرغم من رد الفعل الذي حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون فان الرجعية لم تشمل على وجه العموم ما ناله اليهود من حقوق في الحرية والمساواة ، اذ خرج اليهود من احيائهم وخرجوا كذلك من ازيائهم التقليدية فأصبحوا يلبسون اللبس الاوروبي العادي » (٣٣) الا ان هذا لم يستمر على اطلاقه ، فقد كانت الرأسمالية تتحول تدريجيا الى عدو مقيت ، طفيلي الى اقصى حد ، اناني الى حد الموت ، كانت الامبريالية في الطريق ، وكانت العفونة تنشع من علاقات الانتاج في بعض الدول ، وكان تقسيم الاسواق يظهر كمشكلة والضغط يزداد على الجماهير .... عنيفا قاتلا ...

***

ان تطور المجتمع الى الامبريالية خلق الحاجة الى حلم قديم يبعث من جديد ، يحول ابصار الشعوب ، ويخلق حلا وهميا للازمة ... ازمة الامبريالية مع شعوبها .

وبعث الحلم الرومانتيكي القديم ... الذي كان يمكن ان ينسى لولا ان الاضطهاد لم ينته . كانت الحركة الصهيونية الحديثة هي رومانتيكية عصر الامبريالية !

تبلورت الصهيونية في القرن التاسع عشر كدعوة سياسية منظمة تتحرك بقوة ... وبتنظيم وبحركة قادرة على استفزاز جماهير اليهود ..

كان « تيودور هرتزل » الصحفي النمسوي هو اول من اعطى اشارة البدء كان هرتزل مواطنا نمسويا يهوديا ، وهو كغيره من مثقفي اليهود يعتبر تلك الوعود التي تمتلىء بها التوراة مجرد احلام مستحيلة التحقيق، حتى وقعت قضية دريفوس وهو ضابط فرنسي اتهم بالخيانة وصدر عليه حكم بالاشغال الشاقة المؤبدة وتجريده من رتبته العسكرية وقد اتهم ظلما وقيل ان يهوديته هي التي تحكمت في ضمير القضاة ـ ودل تحليل هذه القضية عند هرتزل على ان هناك حركة رجعية في فرنسا توشك ان تقضي على تمتع اليهود بالحقوق المدنية التي حصلوا عليها تطبيقا لشعارات الثورة البرجوازية واصدر هرتزل كتابه « دولة اليهود » ..

وكتاب هرتزل تعبير عن الرؤية الضبابية التي لم تستطيع فهم ابعاد المسألة اليهودية ، فهو قد افترض ان اليهود قومية وبني قضية على هذا الاساس الواهي كما انه لم يستطع ان يفسر اضطهاد اليهود ..

الا ان كتاب هرتزل قد رفع القضية الى المستوى السياسي ، خاصة وحركات ـ الاضطهاد كانت قد بدأت ترفع رأسها من جديد ، وكانت ثمة حركات حاولت قبل ذلك ان تمهد لاستعمار فلسطين كان اهمها حركة عشاق صهيون . ونجح هرتزل في عقد اول مؤتمر صهيوني في بال خلال عام ١٨٩٧ ، لمدة ثلاثة ايام شهده اكثر من مائتي مندوب يمثلون الهيئات اليهودية العالمية .

ولم يرد ذكر فلسطين كارض محددة في كتاب هرتزل ولكن المؤتمر قرر ان يحدد هدفه بوضوح . كانت الحركة الصهيونية ، وقمتها مقررات بال ، هي « رد اليهود في القرن التاسع عشر والقرن العشرين على ما اصابهم من اضطهاد على ايدي امبراطورية النمسا والمجر والمانيا وفرنسا وروسيا » (٣٤) وكانت ايضا انعكاسا « للوطنية السياسية التي قويت في جميع دول اوروبا اثناء القرن التاسع عشر وجعلت كل امة تصبو الى الوحدة القومية والى السيادة على افرادها في حدود دولة مستقلة » . (٣٥)

كانت اساسا « حركة الهروب النفساني للطبقات المتوسطة من اليهود ، وهي حركة استلزمها ـ من ناحية زيادة تنظيم الرأسمالية العالمية واندماج الرأسماليين اليهود فيها ، كما استلزمها من ناحية اخرى ، زيادة التنظيم العمالي واندماج العمال اليهود فيه. فلقد قضت الثورة الصناعية على اغلبية الطبقة المتوسطة ومنهم اصحاب الحرف وصغار الممولين اليهود ، بينما قضت الثورة الاشتراكية على احلام تلك الطبقة في الاستقلال او الاستغلال ، وبين مطرقة الرأسمالية الاحتكارية وسندان الاشتراكية احسست الطبقة المتوسطة اليهودية ـ كما احست جميع الطبقات المتوسطة الناشئة بضرورة ايجاد مهرب لها ما لبث ان اتخذ الطابع القومي والمطالبة بالنسبة لليهود ـ بوطن قومي ـ بعيدا عن الرأسمالية المنظمة وبعيدا عن الاشتراكية المنتصرة » . (٣٦)

لقد انتهت الصهيونية في القرن التاسع عشر الى صورة جديدة .. صورة القومية !

***

والحركة الصهيونية عندما تعتبر اليهودية قومية تقع في خطأ فهم ساذج لمعنى القومية ولكنها اليوم ، تؤكد هذا الخطأ بمعونة الاستعمار العالمي ، الذي راى في خرافية الحلم الصهيوني وسيلة تتيح له استعمار منطقة الشرق العربي ، واقامة قاعدة في هذه المنطقة من العالم .

واذا كان هناك ما يسمى « قومية يهودية » فان هناك بالتالي بما يسمى « امة يهودية » ! والامة « جماعة ثابتة من الناس ، تألفت تاريخيا، ونشأت على اساس اربع علائم اساسية مجتمعة هي : اللغة ، والارض ،

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

الحياة الاقتصادية ، والتكوين النفسي الذي يتجلى في خصائص الثقافة الوطنية . ووجود جميع العلائم المشار اليها آنفا مأخوذة معا يعطي وحدة تعريف الامة ، لان اية علامة من هذه العلائم ، اذا اخذت بمفردها لا تكفي لتعريف الامة » . (٣٧)

وهذا التعريف للامة يتضمن شرطا اساسيا هو « جماعة ثابتة من الناس » لها علائم اربع محددة ومرتبطة بعضها البعض ، اولها الارض فهي التي يمكن ان تخلق حالة الثبات للجماعة ووجود جماعة ثابتة على ارض محددة ، يخلق لغة واحدة وحياة اقتصادية ، وتكوين نفسي ويلاحظ ان العلائم الاربع ينبغي ان تتوفر بأكملها ..

وثبوت الجماعة هو الاساس « فالامة ليست اوزاعا عرضية ولا سريعة الزوال ، بل جامعة اناس ثابتة » ولا ينطبق ثبوت الجماعة على اي « اوزاع جموع عرضية ضعيفة الترابط فيما بينها تنفرط وتلتئم تبعا لنجاحات او هزام هذا الفاتح او ذاك » (٣٨)

والارض هي الرابط الذي يجمع الجماعة ويخلق حالة الوحدة لدى افرادها . اما « الحياة الاقتصادية المشتركة فتفترض وجود علاقة اقتصادية تجمع مختلف اقسام الامة في كل واحد ، وتنشأ هذه العلاقة بفضل انقسام العمل ، وتطور التبادل وخلق سوق وطنية وتطور طرق المواصلات » (٣٩) ، واللغة هي وسيلة الناس للاتصال فيما بينهم في المجتمع « ولغة امة ما او شعب ما هي شكل من اشكال الثقافة الوطنية تظهر في خصائصها المميزة خصائص التكوين النفسي لامة معينة ، وتتميز الامم بعضها عن بعض لا بشروط حياتها وحسب ولكن بمظهرها الروحي . ان الخصائص التي تميز مظهر الامم الروحي وتكوينها النفسي ونعني بها خصائص الطابع القومي تتكون في الامم خلال اجيال » . (٤٠)

والقومية بمعناها هذا قد ظهرت كحركة قوية في مرحلة التطور الرأسمالي في « عهد تنهار فيه الاقطاعية ونظم الاستبداد المطلق ، وهو العهد الذي ينشأ فيه مجتمع ودولة ديمقراطيان برجوازيان ، وتصبح فيه الحركات الوطنية لاول مرة حركات جماهيرية يدفع تيارها جميع سكانها نحو السياسة بمختلف اشكالها « فما يميز هذا العهد في كل دولة هو » انطلاق الحركات الوطنية التي يجرف تيارها طبقة الفلاحين ـ اي الطبقة التي تضم أكبر عدد من السكان والتي يصعب دفعها الى الحركة ـ وبشكل يتفاعل معه النضال في سبيل الحرية السياسية بصفة عامة وفي سبيل حقوق القومية بصورة خاصة » (٤١) « فالدولة القومية هي القاعدة والنموذج في النظام الرأسمالي » (٤٢) لان « الدولة القومية بالنظر اليها من ناحية العلاقات بين الامم تخلق افضل الشروط القومية بالنظر اليها من ناحية العلاقات بين الامم تخلق افضل الشروط التجزئة الاقطاعية وعلى يد الدولة البرجوازية والتي خلقت الوحدة الوطنية ، ومن المهم هنا ان نشير الى امرين :

١ ـ ان الامة غير الدولة ، فالدولة لا تمثل مطلقا « قوة مفروضة من الخارج على المجتمع كما انها ليست البتة « واقع الفكرة الاخلاقية » او « صورة العقل وواقعه » كما يدعي هيجل الدولة نتاج للمجتمع في مرحلة من مراحل تطوره وهي تشكل الاقرار بان هذا المجتمع قد تعثر في تناقض مع نفسه ممتنع على الحل ، انه انقسم الى متضادات لا يمكن مصالحتها ، متضادات يعجز عن التخلص منها ، ولكنه اصبح من الضروري ـ كيلا تلتهم هذه المتناقضات هذه الطبقات المتناقضة المصالح ، بعضها بعضا ، وتلتهم المجتمع في صراع مجدب ـ وجود قوة تخفف من حدة النزاع باقامة نفسها فوق المجتمع ظاهريا وتحفظه في حدود « النظام » هذه القوة المنبثقة عن المجتمع ، لكن الواضعة نفسها فوق المجتمع ، المبتعدة اكثر فاكثر عنه ، هي الدولة « حقيقة الدولة اذن » جهاز طبقي للسيطرة ، جهاز اضطهاد طبقة لطبقة اخرى ، هي خلق « نظام » يعطي هذا الاضطهاد صفة المشروعية ويثبت اركانه مخففا اثناء ذلك من حدة الصراع الطبقي » (٤٤) ، اما حقيقة الامة فهي عدة طبقات متصارعة تتحد في علائم اربع ذكرناها . ومن البديهي ان الدولة لا تنشأ قبل نشوء الامة . والدولة البرجوازية عند نشوئها كانت البشير باظهار القومية وبتجميع الامة .

٢ ـ ان ظهور شروط وعلائم القومية في الامة من الامم ، يعني حق هذه الامة في تقرير مصيرها « وليس هناك من الوجهتين التاريخية والاقتصادية سوى معنى واحد هو حرية تقرير المصير السياسي ، اي الاستقلال كدولة اي انشاء دولة قومية » (٤٥) ، « فالمقصود بحرية الامم في تقرير مصيرها ، هو انفصالها كدول عن مجموعات قومية اجنبية ، هو تأليفها دولا قومية مستقلة » . (٤٦)

وعلى ضوء هذا فان التسليم بأن اليهود قومية يستلزم التسليم بحق اصحاب هذه القومية في انشاء امة مستقلة سياسيا لهم ، ولكن هذا الحق اذا طبق ينبغي ان يطبق في اطار التقسيمات الجغرافية الموجودة في العالم ، فاذا كان يهود اميركا يشكلون قومية ، فمن حقهم ان ينفصلوا عن اميركا بقطعة الارض التي يقيمون عليها ويشكلوا دولة ، وبهذا يكون عندنا « دولة يهودية امريكية » ودولة يهودية فرنسية ... وثالثة اسبانية، ..... الخ اما ان يتكتل يهود العالم للاستيلاء على امة لها سكانها ـ فلسطين ـ فان هذا يتنافى بلا شك مع حق تقرير المصير .

وعلى اي الاحوال ، فان التسليم بان اليهود قومية ، تسليم بقضية يعوزها الدليل العلمي ..

● فاليهود لم يكونوا ابدا جماعة ثابتة من الناس ، فمنذ فوض الرومان الدولة التي انشأوها في فلسطين تشردوا في انحاء العالم، صحيح انهم في بعض الدول التي هاجروا اليها قد اقاموا في احياء خاصة بهم ، ربما اخذت نوعا من الثبات ، ولكنهم كمجموعة بشرية منتشرة في العالم لم يكونوا ابدا في شكل الجماعة الثابتة .

● واليهود كذلك ليس لهم لغة مشتركة ، والعبرية ، لغة ميته لم يكن يستخدمها منهم سوى رجال الدين ، ولولا ان حركة بعث العبرية قد اقترنت بالدعوة الصهيونية لاندثرت هذه اللغة تماما ، وقد استخدم اليهود لغات الدول التي اقاموا بها واتقنوها . وما زالت مشكلة ازدواج اللغة هي احدى مشاكل اسرائيل اليوم . ويضاف الى هذا ان بعد اللغة العبرية عن الاستخدام قد بعد بها عن ان تكون لغة اجتماعية معبرة تعبيرا تاريخيا عن كل احتياجات المجتمع النفسية والفكرية والاقتصادية ، فهي لغة ميتة كالهيروغليفية واللاتينية القديمة .

وصحيح ان اليهود لهم سمات اقتصادية مشتركة ، فهم يعملون كمصرفيين او مرابين او غيرها من انشطة المجتمع الاقتصادية ، لكن هذا لا يعني وجود حياة اقتصادية مشتركة ، فالحياة الاقتصادية المشتركة هي علاقات انتاجية تظهر في انتاج واستهلاك طيبات المجتمع ، وليست طابعا خاصا ..

● وحرص اليهود على الاحتفاظ بتقاليد معينة ، هو حرص على تقاليد دينية ، وهو ما نجده عند المسلمين في انحاء الدنيا مثلا ـ وليس طابعا نفسيا مشتركا ، فموت العبرية كلغة قد امات ثقافتها ، وهي الاساس في تكوين الطابع النفسي المشترك .

● كذلك فان الاحتجاج بوعود سلالية او الهية ، احتجاج سقط تاريخيا ، ولم يعد يجدي الرد عليه !

ان اليهود قد فقدوا الرؤية الحقيقية لمشكلتهم عندما حولوها الى قومية .

***

« ان قومية اليهودي الوهمية هي قومية التاجر ، قومية رجل المال» (٤٧) ، فالحركة الصهيونية قد وقعت فريسة لامنيات الرأسمال الاحتكاري، وليس من الجدي ان نبحث عن سر اليهودي في دينه ، فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي ، ما هو الاساس الدنيوي لليهودية المصلحة العملية ، والمتفعة الشخصية ، اذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية ، انما يحرر نفسه ايضا ـ والتنظيم الاجتماعي الذي يلغي الشروط الضرورية للمتاجرة ، وبالتالي يلغي امكانية المتاجرة سوف يجعل وجود اليهودي مستحيلا . والضمير الديني اليهودي سوف يتلاشى مثل بخار تافه في جو المجتمع الحقيقي ومن جهة اخرى فاليهودي منذ ان يقر ببطلان جوهره العملي ويبذل جهده لالغاء هذا الجوهر ، يحاول الخروج مما كان تطوره حتى ذلك الحين

ويعمل للتحرر البشري العام ، ويتحول نحو اسمى تعبير عملي عن التخلي البشري عن الجوهر » . (٤٨)

ان الحل الحقيقي لمشكلة اليهود « يستوجب ان يشترك اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها مع قوى هذه المجتمعات التي تناضل للقضاء على الرجعية ذلك « ان القضاء على الاضطهاد العنصري والديني لا يمكن ان يتم بدعوة عنصرية ودينية ولكن فقط بنضال ضد النظام الذي يقوم على اسس الاضطهاد العنصري والديني » . (٤٩)

ان القيادة الصهيونية لم تفهم هذه الحقيقة واندفعت كمخلب قط للاستعمار العالمي لكي تستعمر فلسطين !

***

منذ مؤتمر بال وحتى اعلان قيام دولة اسرائيل ـ كتحقيق للمخطط الصهيوني ـ بدأت الحركة الصهيونية ـ بمعونة القوى الاستعمارية ، تنفذ مخططها لاحتلال فلسطين .

١ ـ بدأت بتصدير الرساميل الى هناك ، وهي الحركة التي بدأها المليونير اليهودي روتشيلد بتشجيعه جمعية « احباب صهيون » وشراؤه الاراضي الزراعية لها ، وبين عام ١٩٢٠ ـ ١٩٤١ هاجر الى فلسطين ٣٢٥٠٠ يهودي ادخلوا معهم ١١٥ مليون جنيه ، وقد ارتبطت هذه الرساميل المصدرة بالمؤسسات الصهيونية الكبرى التي انشأها الرأسمال اليهودي في فلسطين مثل الكارن كايمت أو « الصندوق القومي لشراء الاراضي ووقفها على الشعب اليهودي » وقد تأسس كشركة في عام ١٩٠١ وبلغت الاراضي التي يملكها في سنة ١٩٣٧ ما يقرب من ٣٨٥ الف دونم اي حوالي ٣٠٪ من الاراضي التي يمتلكها اليهود . واسس هرتزل سنة ١٨٩٨ ـ في المؤتمر الصهيوني الثاني ـ « الترست الاستعماري اليهودي » برأسمال يبلغ مليونين من الجنيهات لتقديم الاعتمادات اللازمة للحركة الصهيونية على اساس تجاري . وقد انشأ هذا الترست بنك الانجلو ـ فلسطين في عام ١٩٠٠ برأسمال ١٠٠ الف جنيه ، وعند اعلان الحرب الاولى بلغت ودائعه ٢٥٠ الف جنيه ، وارتفع مجموع عملياته الى خمسة ملايين جنيه ، وساهمت الوكالة اليهودية في مشروعات انجليزية في فلسطين مثل الاتحاد الكهربائي لفلسطين ، وفي مشروعات امريكية مثل الاتحاد الاقتصادي لفلسطين في نيويورك . والاتحاد الكهربائي فرع من الترست الانجليزي العالمي جنرال اليكريك ، وهو من اغنى المؤسسات الاحتكارية .

وقد ساعدت سلطات الانتداب هذا الرأسمال الوافد على انتزاع الاراضي من الفلاحين العرب في فلسطين ، كان الفلاحون مدينين للبنك العثماني الزراعي بالعديد من الضرائب والقروض ، فالغت سلطات الانتداب البنك وطالبت الفلاحين بتسديد ما عليهم ، وارهقتهم ، وكان الرأسمال اليهودي بالمرصاد لدفع الديون وشراء ارض الميعاد ، كما ان صك الانتداب نفسه قد اباح للسلطة المنتدبة حق بيع اراضي الدولة لليهود .

٢ ـ كذلك تضمنت الخطة الصهيونية انتزاع اقصى ربح من فلسطين ، ولما كان العمال العرب في فلسطين ارخص اجرا بطبيعة التخلف الذي كانت تمر به فلسطين ، فقد حاول رأس المال الوافد استغلالهم ، ولكنهم رفضوا التعامل مع اليهود ، يقول دولشين رئيس الشعبة الاقتصادية في الوكالة اليهودية « لقد اعتادت الوكالة اليهودية ان تهجر الى اسرائيل اليهود الفقراء حتى تستطيع ان تقذف بهم الى الصحراء والى مستعمرات الحدود ، وكذلك اعتادت ان تهجر اليهود الاثرياء الذين يستطيعون استثمار اموالهم ويستطيعون العيش من الربا وما يحصلون عليه من فوائد وعائد هذه الاموال » . (٥٠)

ولقد كانت الحركة الصهيونية تدرك منذ البداية ان تصدير الرساميل وحده لا يكفي لتحويل فلسطين الى امة يهودية ، فحرصت على ان تدعم وجودها في فلسطين بشعب ومن هنا بدأ تصدير الشعب اليهودي الى فلسطين ، وارتفع شعار ان فلسطين « وطن بلا سكان فيجب ان تعطى لشعب بلا وطن » ، وبمعاونة سلطات الانتداب بدأ تصدير الشعب ، ففي الفترة من ١٨٨٢ الى ١٩٣٠ كان عدد المهاجرين اليهود حوالي ٣٠٤٠٠٠ نسمة ، ارتفعوا من (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) الى ٤٠٤٠٠٠ ، بينما بلغوا في الفترة (١٩١٩ ـ ١٩٤٩) حوالي ٤٥٢ الف نسمة .

٣ ـ ولحماية نفسها بدأت القوى الوافدة تشكل جيشها ، كانت تدرك انها قد تقع في تناقض مع الاستعمار ، فضلا عن انها قدمت بطريقة وحشية من اصحاب الارض الحقيقيين وبدأ الجيش بداية متواضعة من خفراء المستعمرات اليهودية المنعزلة الذين كونوا « الهاجانا » او قوة الدفاع » ، ونمت قوتها بنمو الوافدين حتى تحولت الى منظمة عسكرية كبيرة اصبح لها مصانعها الحربية وقواعدها المجهزة ، وفروعها في دول العالم ـ اميركا واوروبا ـ تشتري منها الاسلحة ، وانشق من الهاجانا وهي الجيش الام قوى اليمين المتطرف في عام ١٩٣٧ لتنشىء المنظمة العسكرية الوطنية لاسرائيل ـ ارجون زفائي لقومي لاسرائيل ـ ثم انفصل عنها اليمينيون الاكثر تطرفا لينشئوا في عام ١٩٤٠ منظمة المدافعين عن حرية اسرائيل وهي المعروفة باسم عصابة « شتيرن » .

واتحدت هذه القوى خلال الحرب الثانية ، ثم تحولت بعد ذلك وعند اعلان مولد اسرائيل الى جيش اسرائيل النظامي .

٤ ـ وكان خلف هذا كله .. الاستعمار العالمي بقواه الرهيبة ، فهو الذي اصدر صك الانتداب ، وهو الذي سهل لليهود انشاء وطنهم القومي، وهو الذي حرص على ان تظل الحركة الصهيونية تحت حمايته حتى بعد انشاء اسرائيل ، وهو ـ متعاونا مع الرجعية العربية ـ الذي خلق ضبابا حول المسألة بأكملها بحيث نفخ باستمرار في نار التعصب القومي والديني فمنع حلولا ، وحال دون الوصول الى بوارق آمال ، ولم يكن في هذا يعمل لحساب الرجعية العربية او الرجعية الصهيونية .. كان يعمل لحسابه .. وحسابه فقط .

***

الحائط الامريكي والايلون للسقوط

منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وحتى العقود الاولى من القرن العشرين ، اتضحت طبيعة التطور الذي لحق بالرأسمالية ، فزاد تركز المؤسسات الصناعية ، وتمركز الانتاج ، وكشف النظام الرأسمالي عن وجهه الاحتكاري ، وكانت المنافسة ـ شعار البرجوازية الكلاسيكي ـ قد بدأت تلفظ انفاسها ، والشركات الضعيفة تعاني مرارة الخوف تحت جبروت السيطرة المصرفية على الانتاج ، وكان هذا التطور يشكل ازمة كيانية للنظام الرأسمالي .. انفجرت في شكل ازمات اقتصادية تعرضت لها الدول الامبريالية ، وقد كشفت النظرية النازية بوضوح وبلا اي التواء عن طبيعة هذا النظام ، فرغم ما يحمله كتاب كفاحي لهتلر من طنطنة حول التفوق الاري والسلالة الجرمانية التي ينبغي ان تصان من كل خلط ، فان نظرية المجال الحيوي ، كانت تعبر عن ازمة النظام باكمله في معناها الهادىء البسيط والمجرد : « لكل امة الحق في ان تحصل من ثروات العالم ومواده الاولية على قسط يناسب سكانها وحاجاتها وعلى حيز من الفضاء الحيوي او الاراضي يتفق مع هذه النسبة وهذه الحاجات » !!

وكان عصر الامبريالية ايضا هو قمة التطفل على قوة العمل ، فهو السرقة الجريئة واللاانسانية الى اخر مدى ، ومن هنا انتشرت البطالة والجوع وانتشر معهما الثورة والسخط وفي نفس الوقت الذي كانت الدول تحاول اعادة تقسيم « الفضاء الحيوي » كانت هناك مستعمرات تطالب بالاستقلال .. كانت هناك دول تبحث عن مستعمرات ، ومستعمرات تطالب بالتحرر .. كانت ازمة الامبريالية ذات عدة روافد .

● فمن ناحية كانت هناك الازمة الداخلية لكل حكم استغلالي ، بين الذين يشترون قوة العمل وبين الذين يبيعون قوة العمل .. وفي معسكر المشترين انفسهم كانت هناك ازمات اكثر عمقا ، فالاحتكار بطبعه يسحب الارض التي تقف فوقها مشروعات الفئات الوسطى النامية ، ومن هنا كانت الثورة تنتشر .... وتنتشر !

● وكانت هناك الازمة بين الدول الرأسمالية نفسها حول تقسيم

المجالات الحيوية ، فبينما كانت هناك دول رأسمالية راسخة القدم وزعت الاسواق بينها كانت هناك دول اخرى ناشئة تطالب بنصيبها من الفضاءات الحيوية ، من الاراضي البكر والمواد الخام وقوة العمل الرخيصة .

● وكانت الدول المستعمرة ، قد بدأت تنمو برجوازيتها بضعف بمساعدة رأس المال الاجنبي الوافد ، وبدأت الحركات الوطنية تطالب بالاستقلال في مصر وولايات الامبراطورية العثمانية والهند وكثير من مستعمرات العالم !

● وكانت هناك حاجة لاتخاذ وسيلتين لمواجهة هذه الازمة :

١ ـ ان تدخل الدول الاستعمارية في حرب بينها وبين بعضها لتقسيم الاسواق من جديد .

٢ ـ ان يوجد مبرر يمكن تقديمه لجماهير الشعب حول هذه الحرب، لالهائها عن مطالبها من ناحية ، ولضمان الحصول على موافقتها على انتزاع مكاسبها ورجالها وشبابها لتذهب جميعا ضحية الحرب !!

★★★

وفي هذا الاطار كانت الحركة الصهيونية تشكل فريسة سهلة للدول القديمة ـ انجلترا وامريكا وفرنسا ـ

١ ـ فهي حركة تعبر (عن ازمة الطبقات المتوسطة اليهودية التي اخذت تبحث بحثا جنونيا عن مخرج من مأزقها فوجدته في المذاهب الوطنية المتطرفة فالتقت بذلك مع مصالح كبار المستعمرين الذين كانوا يبحثون من جانبهم عن طريقة يجرون بها الشعب في الحروب الاستعمارية تحت ستار المثل العليا ومنها المثل العليا الوطنية) . (٥١)

٢ ـ وساعد على هذا ان التركيب الاجتماعي لليهود ، كان يحتوي على نسبة عالية من التجار والماليين والوسطاء الصغار ، كما انضم الى الحركة من ناحيه اخرى كبار اليهود الماليين في الغرب الذين رأوا فيها فرصة كبيرة لزيادة ارباحهم باستغلالهم افراد الطبقات الشعبية اليهودية المنتمين الى شرق اوروبا ، علاوة على استغلالهم الطبقات الشعبية في بلاد اوروبا الغربية فكان مشروع الدولة اليهودية الذي يرمي الى جمع الشعب اليهودي واحياء تاريخه ولغته واسكانه في وطن ملائم وانشاء دولة على النظم العصرية وقد كان للرأسماليين اليهود في هذا المشروع ما ارادوا اذ جاء يحمل لهم من الفوائد والارباح ما لا يوجد في الحركات القومية الاخرى . (٥٢)

٣ ـ « كان من مصلحة الرأسمالية العالمية دائما ان توجه السخط الاجتماعي بعيدا عن اسبابه الجذرية ومن اهمها النظام الرأسمالي نفسه، فلقد استغل الرأسماليون الاحتكاريون والاستعماريون الحركة الصهيونية في تضليل الطبقة المتوسطة اليهودية عن سر ازمتها كما استغلها في تضليل الاقسام غير المنظمة من الطبقة العاملة اليهودية وكما قام الاستعمار الالماني بتضليل الطبقة المتوسطة والاقسام غير المنظمة من العمال الالمان بوسيلة اعتبار ذوي الديانة اليهودية مسؤولين عن الازمة في المانيا ، قام الاستعمار الانجلو امريكي بتضليل الطبقة المتوسطة والاقسام غير المنظمة من العمال بوسيلة اعتبار العودة الى فلسطين الحل الوحيد لازمتهم » .

٤ ـ وكان الاستعمار العالمي يحاول الحصول على مجالات حيوية ، دولة عميلة تستطيع ان تكون قاعدة له في منطقة من اغنى المناطق واوفرها ادرارا للربح للرأسمال العالمي !

★★★

ولا يستطيع ان ينكر ذلك الارتباط بين القوى الاستعمارية وبين الصهيونية العالمية وبالذات الاستعمار الانجليزي والاستعمار الامريكي ، فهو ارتباط لا تؤكده وقائع التاريخ فحسب ، ولكن تعترف به الاطراف الثلاثة ايضا ، فليس الاستعمار الانجليزي والامريكي هو الذي ساهم وصنع اسرائيل فقط ، ولكنه ايضا هو الذي حماها واكد وجودها ، وحرص على ان يفرض الوضع الحاد الحالي لفلسطين .

الا ان الصهيونية العالمية قد حرصت لتحقيق مصالحها الخاصة ، على الاستفادة من التناقضات الاستعمارية ، فالاستعمار الامريكي ، الذي مكنته ظروفه الخاصة ، وخروجه من الحرب الاولى باقل الخسائر ، وكان مبشرا بسقوط الاستعمار القديم ، وتواريه وقد استطاع ان يتزعم المعسكر الاستعماري ، ومن هنا استفادت الحركة الصهيونية منه بعدما وجدت ان الاستعمار البريطاني وقد اكتشف ضعفه فحاول ان يحول دون انشاء الوطن القومي اليهودي بمقررات ١٩٣٩ ، فحولت جهدها للاستفادة من الاستعمار الجديد .. القوى .. امريكا ..

★★★

كان اول مظهر من مظاهر التأييد البريطاني للفكرة الصهيونية وعد بلفور ، الذي وجهه آرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا يومئذ في رسالة الى اللورد روتشيلد رئيس المنظمة الصهيونية الانجليزية .

وبناء على هذا الوعد صدر صك الانتداب عقب انتهاء الحرب ، والانتداب هو فكرة الاستعمار الجديد ، او امريكا ، الذي كان يرى ان اقتسام الغنائم ينبغي ان يتم بالطرق الكلاسيكية التي لم تعد تصلح للتعامل مع الشعوب ، وانما على عصبة الامم ان تنتدب من قبلها دولة كبرى تكل اليهم مهمة تثقيف الشعوب المتحررة حديثا من نير الاستعمار التركي والالماني ، وهكذا صدر ميثاق عصبة الامم المتحدة متضمنا النص على تطبيق نظام الانتداب على البلاد المنتزعة من المانيا وحلفائها ، وان الانتداب رسالة تمدينية مقدسة تراقب عصبة الامم اداء الدول المنتدبة لهذه الرسالة .

والواقع ان المساعدة التي قدمتها سلطات الانتداب ، مساعدة يشكوها اليهود حتى اليوم ، ذلك ان هذه المساعدات قد جرت في جو من المقاومة الباسلة التي خاضتها جماهير الشعب الفلسطيني حفاظا على وطنها من التدفق العميل ...

وكان واضحا امام سلطات الانتداب ان هدفها الاساسي ان يكون اليهود اغلبية في فلسطين حتى يستطيعوا اعلان دولتهم فيها .. ومن هنا بذلت هذه السلطات جهدها في تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، كما ساعدت ايضا على تنظيم القوات العسكرية اليهودية حتى ان المنظمات الارهابية اليهودية استطاعت بسرعة ان تتحول الى جيش منظم دخل الحرب ضد سبع دول عربية في مايو سنة ١٩٤٨ وانتصر عليها . ولعل اكبر المساعدات التي قدمتها سلطات الانتداب البريطاني هو انها ـ وهي المكلفة بحفظ الامن والنظام في فلسطين ـ قد انسحبت الى معسكراتها في الفترة من صدور قرار التقسيم في نوفمبر سنة ١٩٤٧ حتى انتهاء الانتداب وبداية الحرب اليهودية العربية في مايو ١٩٤٨ ـ وتركت اليهود والعرب في معركة ضارية ، تاركة ابواب معسكراتها لافراد العصابات الصهيونية لكي يسرقوا السلاح .

★★★

كان للاستعمار الانجليزي فضل احتضان الحركة الصهيونية وهي وليد يحبو ، الا ان الصهيونية كانت قد انتقلت بمركز ثقلها الى الميدان الامريكي منذ ثلاثينيات هذا القرن فبعد انهيار ستار العزلة الامريكية ، خرج الاستعمار الامريكي من الحرب الاولى وقد دخلها في نهايتها كما فعل في الحرب الثانية ـ قويا فتيا ، في الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار البريطاني يتوارى في السفح ، وبدأ البحث عن قاعدة في الشرق الاوسط.

فقد حملت هذه العقود من القرن انتصارات الشعب السوفياتي بقيادة الطبقة العاملة مما دفع ، « الدول الرأسمالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية الى تأييد الصهيونية بكل قوتها كوسيلة لتحويل يهود اوروبا عن الشيوعية وابعادهم عن الحركات المناصرة لها التي اخذت تشتد في جميع دول اوروبا بعد انتصارها في روسيا . » (٥٤)

وفي نفس الوقت كانت رغبة الولايات المتحدة في الحصول على قاعدة لها في المنطقة قد بلغت اوجها ، خاصة ان شعوب المنطقة نفسها كانت تعيش في ظل ظروف استغلالية بشعة مما كان يهدد باستمرار بحدوث ثورات وانتفاضات شعبية لو توفرت القيادة المنظمة .

يضاف الى هذا كله ان النفوذ الصهيوني في امريكا غير مشكور فالامبريالية الامريكية تعتمد على احتكارات اليهود الصناعية والتجارية والزراعية ، ومن بين ٧٤ شركة صناعية كبيرة في هول ستريت توجد عشرون شركة يملكها كبار الرأسماليين اليهود ملكية تامة .

وكان الامريكيون يرون ان بريطانيا لم تعد قادرة على تنفيذ مخطط

الصهيونية خاصة ان الانجليز قد ادركوا ضعفهم وادركـــوا الاطمـــاع الامريكية فحاولوا في الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ ان يتراجعوا ، ولم يكن هذا التراجع الا نتيجة لعنف الثورة الفلسطينية الكبرى عـــام ١٩٣٦ ، واملا في ان تؤلف دولة ترتبط بحلف مع بريطانيا ، وقد اعترفت بريطانيا في الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ بتعارض الالتزامات التي اخذتها على عاتقها نحو اليهود والعرب وغموض معنى الوطن القومي اليهودي ومداه واعترفت بانها قد ساعدت على انشاء الوطن القومي اليهودي مساعـــدة فعالة بحيث صار من الصواب ان يتمتع اهل فلسطين بما امكن من السرعة بحقوق الحكم الذاتي التي يمارسها اهالي البـــلاد المجاورة ، وقررت تشكيل حكومة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات ترتبط معها بمعاهدة وينتهي الانتداب وعلى ضوء هذا فانها ستسمح لاخر مرة لخمسة وسبعين الف مهاجر خلال خمس سنوات ثم لا يسمح بعد ذلك بهجرة يهوديـــة اخرى الا اذا قبل بها عرب فلسطين .

لقد كان معنى هذا في نظر الصهيونية ان الحائط البريطاني قـــد سقط !

فقامت حرب اليهود ضد سلطات الانتداب ، وقتـــل عدد مـــن الشخصيات البريطانية اللامعة وحاولت بريطانيا التنازل عن وعود عـــام ١٩٣٩ ، وفي نفس الوقت كان مركز الثقل ينتقل الى نيويورك وواشنطن.

***

وجه اليهود نداء الى الرئيس ترومان عام ١٩٤٧ قالوا فيه « ان قيام دولة يهودية في فلسطين ضروري لاستقلال الملايين الذين لا يزالون فـــي مراكز التجمع بالمانيا واوروبا حتى يبني منهم حائط امريكي في الشرق الاوسط ، ان امريكا لا يمكنها الاعتماد في الايام القادمة على حليف حازم خير من دولة يهودية في ذلك الجزء من العالم ... » .

وصرح روزفلت في انتخابات الرئاسة « ان الشعب الامريكي يؤيـد امل اليهود في قيام كومنولث ديمقراطي في فلسطين وسوف اساعد على تحقيق هذا الامل » .

وهتف ترومان « على عرب فلسطين ان يتركوها لليهود » .

وفي انتخابات عام ١٩٤٤ صرح الديمقراطيون في برنامج حزبهـــم « اننا نؤيد فتح ابواب فلسطين للهجرة والاستعمار اليهودي دون قيـــد او شرط ، ونؤكد كذلك كل سياسة من شانها ان تسفر عن تكوين دولـــة يهودية ديمقراطية حرة » .

وطالب الجمهوريون « بفتح فلسطين للهجرة غير المقيدة وامتـــلاك الاراضي حتى يمكن ان تنشأ في فلسطين دولة ديمقراطية حرة ، واننـــا نحمل بشدة على سياسة الرئيس ترومان بفشله في ان يجبر السلطـــة صاحبة الانتداب على تنفيذ نصوص وعد بلفور ، وذلك في الوقت الذي يتظاهر فيه بمساعدتهم .

لقد استطاعت الدبلوماسية الامريكية اتباع اساليب التهديد بقطع المعونات الامريكية والضغط السياسي البالغ العنف حتى حملت الـــدول على تأييد قرار التقسيم ، وعلى الرغم من ان التقسيم كان في ذلـــك الوقت هو الحل الممكن ، او احسن الحلول السيئة فان الدول كانت ترى فيه اجحافا بحق العرب ، ولولا الضغط الامريكي لما استطاعت الصهيونية العالمية الحصول على قرار من الجمعية العامة بتأييد التقسيم .

***

ان خطورة اسرائيل اليوم لا تكمن في انها دولة فـــي وسط المنطقة قامت على اساس استعماري فقط ، ولا تختفي خطورتها ايضا في انهـــا استولت على الاراضي التي هي من حق الشعب الفلسطيني فحسب ، ان خطورتها الحقيقية ، انها قاعدة استعمارية ، تمثل الفكريات السائدة فيها امنيات الاستعمار العالمي في التوسع على حساب المنطقة ، وعلى الرغـــم من ان دعوى الاضطهاد قد انتهت من زمن ، فما زالت اسرائيل تصر علـــى انها وطن اليهود في العالم اجمع ، وانها لكي تستوعب هذا العدد ، لا بد من ان تمد حدودها من الفرات الى النيل !

الخطورة الحقيقية لاسرائيل انها دولة عميلة للاستعمار العالمي الذي يعيش في شبه مأزم باحثا عن اسواق !! .

وانتقال الصهيونية من العمالة للاستعمار الانجليزي للعمل لحساب الاستعمار الامريكي هو انتقال من العمل لحساب استعمار مهدوم ، الـــى العمل لحساب استعمار قوي ... عنيف وحاد الى اخر مدى مع قمـــة الاستعمار الحديث ... امريكا !!.

***

واقع يتحرك بتناقضاته

ظهرت المسألة الفلسطينية على مسرح الواقع العربي ، في مرحلة من ادق مراحله وليس جديدا ان يقال ان الاوضاع العربية هي المسؤولـــة عن تطور هذه المسألة بشكلها الحالي ، ولكن المهم هنا ان ندرك طبيعـــة هذه المسؤولية وان نصل الى تحليل موضوعي لها ، وينبغي هنا ان نلتفت الى ملاحظة جديرة بالاعتبار ... تلك ان الواقع العربي عندما تحرك في مواجهة المسألة الفلسطينية قد تحرك بتناقضاته ، في محاولة للحصول على عمل لهذه المتناقضات كهدف اساسي ، ومن هنا فان موقفه لا يمكـن ان يوصم بالخيانة او التردد من وجهة نظره هو ، فطبيعة التطور اليـوم هي التي تحدد هذا الموقف في لحظته وليس المهم ان نصم طبقة او فئـة بالخيانة ، ولكن الاهم ان نصل الى القول ان هنـــاك فئات اجتماعية ، ترى حلا للقضية الفلسطينية يتجاوب مع امنيات الجماهير فـــي السلام والامن الاجتماعي ، وان انتصار هذه الفئات يحمل حلا جديدا للقضية !

***

كانت محاولات الشعب الفلسطيني للحصول على استقلاله الوطني مواكبة لغيرها من الحركات المماثلة في الوطن العربي ، وقد بدأت جميعا في الفترة التي شهدت انهيار الاحتلال العثماني .

كان هذا الاحتلال مسؤولا عن بقاء هذه المنطقة من العالم فـــي اسر الاقطاعية بما فرضه من عزله ، وبتصديره عددا من الحرفيين الى عاصمة ملكه ، وفي الوقت الذي كان النظام الاقطاعي يتهاوى في اوروبا تحـــت ضربات البرجوازية الزاحفة ، كانت هذه المنطقة تعيش ملتفة بالديـــن الاسلامي تحت حكم الامبراطورية العثمانية في تأخر ، وتخلف لا مثيل لهما.

وفي محاولة البرجوازية الاوروبية المنتصرة الحصول على الاسواق، ضمت اليها بعض الدول الواقعة تحت النفوذ العثماني ، اما ضما فعليا كما حدث في مصر ، او بتسلل رؤوس الاموال تدريجيا كما حدث فـــي الكثير من الدول التابعة للامبراطورية العثمانية ومنها فلسطين .

وقد شهدت الولايات العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى بدايـــة الحركات الوطنية فتأسس عديد من الجمعيات العربية هدفها الاساسي الحصول على الاستقلال الذاتي للولايات العثمانية ، وكانت هذه الحركات تكشف عن طبيعة التطور الذي لحـق باجـزاء الامبراطورية العثمانيـة المتهاوية . (٥٥)

فقد كان النظام الاقطاعي في هذه الولايات في مرحلة التخلخـل ، نتيجة لاستقرار الملكية الفردية من ناحية ، ثـم بالاستفادة من شبكـات المواصلات العديدة التي انشأها رأس المال الوافد لحماية مصالحه ، فـي نمو الحركة التجارية ، خاصة وقد ظهرت المزارع الكبيرة التي تنتـــج المنتجات الزراعية بهدف التصدير ، يضاف الى هذا حركة جنيفية لانشاء الصناعات الوطنية وحركة اخرى ترتبط بالرأسمال الاحتكاري الوافـد وتشكل طابورا خامسا له في الجبهة الوطنية .

ومن هنا فقد كان النمو الجديد في المجتمع ، يحمل من ناحيـــة طابع الاستغلال الرأسمالي للارض ويحمل ايضا طابع الرأسمالية الصناعية الضعيفة من ناحية اخرى . هذا الطابع المزدوج كان عليه ان يواجـــه مقاومة البرجوازية الاوروبية في اعلى مراحلها ، الاحتكار ، ومن هنـــا اتخذ طابعه الخاص ، طابع المقاومة الضئيلة المتهادنة .. وبصفة اساسية محاولته الساذجة لاستغلال التناقضات بين المعسكر الاستعماري ..

وكان الشريف حسين شريف مكه ، هو الممثل لهذه الطبقة ، فقـــد حاول الاستفادة من المتناقضات الاستعمارية عقب انضمام تركيا للالمـان

التتمة على الصفحة ١١٣

في أصـــــول المسألة الفلسطينية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٢ ـ

في الحرب الاولى ، فاتصل بالسير ماك ماهون المندوب السامي البريطاني بالقاهرة ، ودارت بينهما محادثات ، كان هدفها الحصول علـى مساعدة انجلترا في الاعتراف باستقلال الولايات العربية مقابل انضمامها للحلفاء في الحرب الاولى .. وقد بذل الشريف جهده لمساعدة الحلفاء ، فـي الوقت الذي استغلوا هم فيـــه الحرب لتنفيذ اهداف الرأسماليـة الاحتكارية ، فوقع اتفاق سايكس بيكو السري بـــين انجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية ، ثم صدر وعد بلفور ، وكلاهما ، الاتفاق والوعـــد يوزعان البلاد العربية بين دول الحلفاء ..

***

وكان صدور وعد بلفور ، نقضا واضحا لدعوة مكماهون للحسين ، فقد كانت فلسطين من بين الولايات التي حفظتها هذه الوعود كجزء مـن الامبراطورية العربية ، ومن هنـــا ساعدت قوات الحسين اللورد اللنبي في استيلائه وامتلاكه لها ، الا ان الانجليز عندما فتحوها بدأوا ينفـــذون مخططهم بفتح اسواقها للمنتجات ، وتصدير رأس المال اليها واستيراد المواد الخام منها .

وتنفيذا لهذا المخطط عمد الاستعمار الى انشاء حركة اقتصاديـة نامية ، فقـــد ساهم الحكم العثماني فـي ايجاد لون مـن الوان الركود الاقتصادي ، ومن هنا بدأ الاستعمار في انشاء خطوط السكك الحديدية وشبكات الطرق والموانىء وغيرها من الانشاءات التي تساعده على اقصى استفادة من فلسطين .

وقد هزت هذه الانشاءات الاقتصاد الفلسطيني الذي كان يعتمـد على الزراعة بشكل متخلف ، فبدأ يتطور تطورا جديدا . فالطابع الذي كان سائدا في الزراعة الفلسطينية اذ ذاك قريب من الاكتفاء الذاتي ، اذ كان اغلبية الانتاج من الحبوب والغلال يستهلكها الفلاحون محليا ، ومـن هنا كانت الطرق المستخدمة في الانتاج الزراعي طرقا متخلفة ، فالـــري يعتمد على الامطار والادوات المستخدمة في الزراعة ادوات بالية كالمحراث الخشبي والاسمدة غير الكيماوية . وكانت خطورة هذا اللون من الزراعة انه غير كاف لتوفير حياة اقتصادية نشطة وكان تنشيط الزراعة بعـــد ظهور الموانىء وطرق المواصلات مولدا لتنشيط التجارة ، فتحولت الزراعة الفلسطينية الى زراعة كثيفة ، فتضاعفت مثلا المساحة المزروعة بالاشجار الحمضية (الموالح) ، وبـدأت المنتجات الزراعية تظهر كسلعة تساعدها الظروف الحضارية على التصدير وادى هذا ايضا الى ظهور المـــدن ونموها ، مما خلق نوعا اخر من الزراعة الكثيفة ـ لم يكن مهتما به مـن قبل ـ وهو زراعة الخضار والفواكه ، وبالطبع فان هـــذا لا يعني ان الزراعة الفلسطينية قد تحولت كلها الى زراعة كثيفة ، فقد ظلت هنـاك مساحات كثيرة تعتمد على الطرق البالية ولكـن المهم ان بدء التطوير الرأسمالي للزراعة ، قد ظهر في هذه المرحلة وظهر معهـا بشكل جنيني صناعة فلسطينية متواضعة اساسها الحرفيون من اليهود والعرب الذين بدأوا العمل في ظروف تتحدى الرأسمالية الاحتكارية الوافدة .

***

أدى هذا التطور الى نشوء طبقـــات اجتماعية في فلسطـــين ، واضمحلال بعض الطبقات « غير ان هذا التغير لم يقترن بتغير مماثل له فـــي جميع نواحي الحياة الفلسطينية ولا سيما ان صعود الطبقـات الجديدة صعودا اقتصاديا واجتماعيا بما كان يمكنها من الاستمرار في هذا السبيل ومن فتح الامكانيات واسعـــة امامها لتتولى الحـــك السياسي » . (٥٦)

كانت الرأسمالية العربية الناشئة في فلسطين « تريد ان تكـــون اقتصاديات فلسطين جميعا في مجال الاستغـــلال والاستثمار ، غير ان الاوضاع التي فرضها الاستعمار على فلسطين لا تسمح بذلك » . (٥٧)

كانت هذه الاوضاع تتبلور في بقاء النظم الاقطاعية من ناحيـــة ، ثم افساح السبيل امام الاحتلال الصهيوني الذي يوقف الاراضـــي الخصبة على الشعب اليهودي فيحرم الرأسمالية العربية من تداولها بين ايديها فضلا عن تثبيته اقـــدام الاحتكارات الكبرى وحمايتـــه للصناعات الاحتكارية الاجنبية بنظامه الجمركي . وبدأت الرأسماليـة العربية تشكل احزابها السياسية ، « تلك الاحزاب التي تدخلت فيها الطلائع السياسية لطبقتي الاقطاعيين والرأسماليين » مثل حزب الكتلة الوطنية ، ومؤتمر الشباب والحزب العربي الفلسطيني .. (٥٨)

وفي نفس الوقت كانت الطبقة العاملة الفلسطينية تتكون فـي خفوت ، فظهرت مراكز تجمعها في المدن الكبرى ، وتكونت اساسا مـن العمال الزراعيين الذين سحبت الرأسمالية الارض من تحت اقدامهم فبدأوا يهاجرون الى المدن ، كذلك تحول البدو الى عمال نظرا لحـالة الفقر الشديدة التي كان يعانيها المجتمـــع الفلسطيني . وظهـــرت القيادات العمالية في فلسطين منذ سنة ١٩٢٠ ، فعقدت المؤتمـرات العمالية ، وألفت بعض النقابات .

ويلاحظ ان تطور المجتمع الفلسطيني قد واكب الهجرة الصهيونية وانعكس ايضا على اليهود الوافدين ، فسياسة الهجرة قد اعتمدت على تصدير رؤوس الاموال الصهيونية والانكليزية ولهذا تميزت الحيـاة الاقتصادية بعـــد الانتداب « بالميزات التي نجدها في اقتصـــاد المستعمرات أي بتطفل عدد صغير من الاحتكارات ـ صناعية ومـالية وزراعية ـ على اقتصاد متأخر نسبيا ، ومن جهة اخرى بتطفل الاستعمار ـ ككل ـ على المستعمرة ككل ايضا . » (٥٩) ، فقامت السلطـــات الاستعمارية بحماية احتكاراتها بواسطة حماية جمركية متقنة ، حتى ان متوسط الرسوم الجمركية سنة ١٩٣٧ بلغ ١٠٠ ٪ على السكـر و ١٤٩ ٪ على الدخان ... الخ .

وكان هذا الاحتكار يشكل خطرا على الطبقات الصاعدة ، يهودية وعربية ، اذ ان المهاجرين اليهود كانوا اما اصحاب رؤوس امـــوال للاستغلال ، او عمالا فقراء للعمل في المستعمرات ، وكان هؤلاء العمال يعيشون في ظروف عمل بالغة السوء فقد دلت بعض التقديرات على ان ٦٠ ٪ من العمال اليهود يبلغ دخلهم أقل من ٦ جنيهات فلسطينية في الشهر وقدر عدد العمال اليهود العاطلين جزئيا وكليا بـ ١٢٠٠٠ عامل ، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية بعد ان خف الطلب على العمل بسبب انتهاء الحرب قدر عدد العمال اليهود العاطلين بستة الاف ، كذلك كانت اجور العمال العرب منخفضة جدا ، تصل الى ١٣٨ مـــلا يوميا وتتراوح ساعات عملهم بين ٨ ـ ١٦ ساعة يوميا ، ورغم هـــذا فقد كانت التفرقة العنصرية تعمل على خفض اجورهم عن زملائهـــم اليهود ، فالعامل الفلسطيني كان يتقاضى من ٨٠ ـ ١٢٠ ملا لحرث الارض ، بينما يتقاضى اليهودي لنفس العمل من ٢٠٠ ـ ٢٥٠ ملا ، ويلاحظ ان الاجر في كلا الحالتين يتضمن استغلالا معينا .. كـذلك هاجر الى فلسطين عدد من الحرفيين اليهود ، ومارسوا نشاطهـــم المحدود هناك ، وظهرت بعض الصناعات اليهودية التـــي ما لبثت ان تطورت .. في الوقت الذي تطور فيه الاقتصاد العربي الفلسطيني ، الا ان هذا التطور ـ بفعل عديد من الظروف ـ قد نشأ عنه تجمعيـن طبقيين منفصلين ، فنلاحظ مثلا « انقسام الغرف التجارية قسميـن عربية ويهودية كما ان مصدري الموالح الفلسطينية أنشأوا بورصتيـن للاثمار الحمضية واحدة منها يهودية والاخرى عربية » . (٦٠)

ان شكل التطور في المجتمع الفلسطيني قد خضع لعدة اتجاهات :

● فهو قد خضع لبقايا الفكر الاقطاعي ، ممثلا في ازدواجيـــن البرجوازية الفلسطينية الناشئة عن التطور الرأسمالي للانتـــاج الزراعي ، وعن التطور الرأسمالي للانتاج الصناعي .

● وهو قد خضع للتفرقة بين العرب وبين اليهود ، فنشـــأت برجوازية يهودية واخرى عربية متنافستين ، ونشأت طبقة عمـــالية عربية واخرى فلسطينية متنافستين ، يدير هذا التنافس ويعمل علـى اذكاء ناره الرأسمالية الاحتكارية الصهيونية الانكليزية .

ومن خلال هذا المنحنى الخط بدأت الحركة الوطنية الفلسطينية..

كانت طبيعة التكوين الخاص للطبقة القائدة للحركة الوطنيـة خلال الحرب الاولى هي التي أنهت المرحلة الاولى منها بابدال الحكم

الانكليزي بالحكم التركي ، ولقد استطاع الاستعمار الانكليزي بما لـه من دراية وحنكة ، ان يضرب الرأسمالية الناشئة ، فاجتذب من قيادتها العناصر الاقطاعيه التي يسهل التحالف معها ، والتي ترتبط مصالحها بمصالحه وبدأت اللجنة التنفيذية العربية وهي الهيئة التي انتخبتها المؤتمرات العربيه للاشراف على الحركة الوطنية في فلسطين اذ ذاك في محاولة فهم الموقف ، غير انها وقعت في الفخ الذي نصبه الاستعمار لها اذ « شهدت قضية فلسطين منذ الاحتلال البريطاني الى عـام ١٩٢٦ سلسلة من المذابح التي قام بها العرب ضد اليهود بسبب الاستفزازات الاستعمارية المتكررة ، ظـانين ان هؤلاء هم المصدر الرئيسي للبلاء وان الحكم البريطاني لولاهم لحقق وعوده ونفذها » .

وعندما استكمت الازمة الاقتصادية في فلسطين نتيجة للازمة العالمية للنظام الرأسمالي (١٩٢٥ ـ ١٩٢٩) ، بدأت سلسلة اخرى مـن المذابـح ...

لقد استطاع الاستعمار البريطاني ان يوهم الحركة الوطنيـة بان اليهود هم اسباب الازمة في حين ان اليهود ضحايا مثل العـرب للامبريالية ، وساعدت العناصر الاقطاعية على تحويل النضال الثـوري ضد الاستعمار الى نضال عنصري وديني .. الا ان البرجوازية العربية بدأت تدرك ـ بنموها وتطورها ـ طبيعة المعركة ورفعت شعار الامـة ، وأوفدت عددا من الوفود الى مؤتمرات عالمية بهدف شرح قضية الوطن الفلسطيني بأكمله .. فاحتجت على الوطن القومي اليهودي وطـالبت بحكومة برلمانية وفلسطنة الوظائف والمساواة بين العمال العـرب واليهود في العمل الحكومي ، وهي في اعتراضها على الوطن اليهودي تسجل خطره الشديد « على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقوميـة والكيان السياسي » ثم تنص على ان « سكان البلاد الاصليين مـن اخواننا الموسويين لهم ما لنا وعليهم ما علينا » وفي المؤتمر العربـي السابع (١٩٢٨) سجلت « ان العرب في فلسطين وهم يطلبون حقهم في الحكم التشريعي لم يريدوا قط ان يغمطوا حقوق اليهود الذيـن يساكنونهم » . (٦١)

واخذ النضال العربي في تلك المرحلة عدة وسائل سلميـة في الغالب ، فامتنع العرب عن الترشيح في الانتخابات البلدية ورفضـوا مشروع الوكالة الغربية . الا ان هذا لا يعني ثورية القيادة السياسيـة على اطلاقها فقد شابت بعض مواقفها تهاونية واضحة ، كما ان موقفها العنصري من اليهود لم يتلاش تماما .

وخطورة الموقف العنصري من اليهود ـ فضلا عما في العنصريـة نفسهـا من تخلف ـ انه ابعد المعركة عن مجالها الحقيقي ، فالانكليـز هم العدو الاساسي في المعركة ، ووجودهم هو الذي سبب وجـود اليهود في فلسطين ، وترك حكومة الانتداب وشن حرب دينية عـلى اليهود دون كيشونية لا معنى لها ، وقد اثبتت مراحل التطور بعـد ذلك خطأها وعدم جدواها .

الا ان تطور الرأسمالية العربية كان يفتح باستمرار آفاقا لرؤيـة اوسع وبالتالي لموقف اكثر ثورية . وخاصة في الفترة التي تلت عـام ١٩٣٣ حيث توسعت حكومة الانتداب في السماح لرؤوس الامـوال بالعمل ، وزادت ايضا الاموال الاجنبية في فلسطين ، ففي هذه الفترة « وعت الرأسمالية العربية الناهضة بأن الاستعمـار البريطاني هـو عدوها الرئيسي وتحولت ثائرتها من مكافحة اليهود الى مكافحـة حكومة بريطانيا العظمى ، فأخذت الحركة الوطنية العربية المقومـات الرئيسية للحركات القومية حتى ان تقرير بيل (١٩٣٧) لا يجد مفرا من الاعتراف بذلك اذ يقول : ويظهر جليا اذن ان مشكلة فلسطيـن هي مشكلة سياسية وانها كما هي في البلاد العربية الاخرى مشكـلة القومية الثائرة » . (٦٢)

وتشكلت قيادة جديدة للحركة الوطنية ، وبدأت الثورةالفلسطينية سنة ١٩٣٩ بقيادة الفئات المثقفة من الطبقة الوسطى ، واندلعت مـن المدن الرئيسيه ... وكانت بدايتها بعض المظاهرات العنيفة التـي ما لبثت ـ تحت ضغط المقاومة ـ ان تحولت الى ثورة » .

ووجهت قيادة الحرس الوطني بيانا بالكفاح المسلح جاء فيـه ان الانكليز « هم الاصل في قضيتنا واليهود الفرع ، هم الذين رمونـا بالصهيونية وهم الذين يهدرون دماء ابنائنا » .

الا ان المعتدلين في قيادة الحركة الوطنية لم يتوقعوا تحـول الاضراب الى ثورة مسلحة فبدأت محاولات الصلح ، والتقهقر ، ثـم ساعدهم ملوك العرب معتمدين كما جاء في بيان اللجنة العربية العليا « على حسن نوايا صديقتنـا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنـة لتحقيق العدل » .

وقد حاولت قيادة الطبقات الشعبية التي ظهرت خلال الحـرب العالمية الثانية ان تقدم حلا عمليا للمسألة ، مبنيا على ما كشفت عنـه التطورات الاخيرة ..

١ ـ فمن ناحية كان اندحار الفاشية الاوروبية قد ادى الى قيام حكومات شعبية في اوروبا وهي مركز الاضطهادات القومية والعنصرية وبخاصة ضـد اليهود ـ مما بشر بقرب زوال المسألة اليهـودية زوالا نهائيا .

٢ ـ ومن ناحية ثانية كانت جماهير اليهود في فلسطين تفكـر في ان تبرحها وتعود الى بلادها المحررة لان الطبقات العمالية اليهودية بدأت تنفذ ارتباطها العنصري والديني بالصهيونية بعدما تركز الانتـاج الصهيوني وكشف عن طفيليته .

ولهذا طالبت القوى الجديدة :

١ ـ الغاء الانتداب وانشاء حكومة ديمقراطية وطنية في فلسطين تمثل جميع سكانها عربا ويهودا .

٢ ـ السماح لمن يريد العودة من اليهود المصدرين الى فلسطين الى بلده الاصلي بالعودة ، ووقف الهجرة اليهودية الى فلسطـين وسقوط خرافة انشاء الوطن القومي اليهودي .

الا ان هذه المطالب كانت تجابه بضراوة من جبهات ثلاث :

- من الاستعمار البريطاني الذي كان ما يزال يحلم بالاستيـلاء على جزء من فلسطين ولو لحساب زعيمة معسكره اميركا ..
- من الجبهات اليمينية التي كانت تقود الحركة الصهيونية .
- من الدول العربية التي كانت تحاول في تلك المرحـلة ان تستفيد من المسألة الفلسطينية للتغلب على مشاكلها الداخلية ..

***

كان قرار التقسيم هو احسن الحلول السيئة ، والدول التـي وافقت عليه كانت تدرك جيدا انه لا يوجد حل احسن سوءا منـه ، فالحق الفلسطيني كان واضحا جدا ، والباطل الصهيوني كان ايضـا واضحا جدا . الا ان المعارك العنصرية العنيفة كانت قد قضت عـلى أي أمل في انشاء دولة ديمقراطية تضم العرب واليهود ، ومن هنـا كان التقسيم هو الحل المعقول ..! صحيح ان التقسيم كان سيعطي للاستعمار قاعدة في المنطقة ، الا انه كان ايضا سيسمح بقيام دولـة فلسطينية عربية تستطيع أن تؤكد وجودها وتنمي اقتصادها ولم تكن الدولة اليهودية هي القاعدة الوحيدة للاستعمار في المنطقة اذ ذاك ، كما انها ليست هي الوحيدة الان ...

ولكن الدول العربية رفضت التقسيم !! وبدأت تستعد لدخـول الحـرب !!

ورفضت العناصر الصهيونية اليمينية ـ مثـل عصابة شتيرن ـ التقسيم ، وقال مناحم بيجن « ان الوطن ـ وطن اليهود ـ قد بتر » . وبدأت هذه العناصر تستعد لدخول الحرب !!

ويعد الموقف الـذي وقفته مصر من المسألة الفلسطينية ـ قبـل يوليو ١٩٥٢ ـ دليلا واضحا على مدى ما كانت تعانيه البرجوازيـة المصرية من ازمات ..!

كان التطور الذي شهده المجتمع المصري منذ ثورة ١٩١٩ يتمثـل في محاولة البرجوازية المصرية صنع ثورتها « والقيادة السياسية لتلك المرحلة هي قيادة البرجوازية في مرحلة نشوئها والطابع السائـد للرأسمالية المصرية اذ ذاك هو طابع الرأسمالية التجارية الضعيفـة ، ومن هنا اخذت اسلوب الكفاح المتهادن المستسلم احيانا .. وكان يحيط بالرأسمالية المصرية عدد من القوى الاجتماعية الغريبة التكوين ، فكبار ملاك الاراضي كانوا يشكلون نوعا من الاستغلال الرأسمالي للارض لان النسبة الكبرى من اراضيهم كانت تستغل ايجاريا .. بينما كـان

رأس المال السائل في ايديهم يستغل في شركات اجنبية تعمل في مصر ، وفي نفس الوقت كانت مصانع النسيج في لانكشير ترتبط مصالحها بمصالحهم ، فالقطن وهو السلعة الرئيسية للانتاج الزراعي كان يصدر الى انكلترا » (٦٣) وكان هذا الازدواج في النمو ، هو الذي لم يتح للحركة الوطنية المصرية تحقيق ثورتها حتى عام ١٩٥٢ ، فكبار ملاك الاراضي كانوا اقوياء ، وكان الملك على رأسهم يمثل سلطة قوية ، ساعدتها الظروف التاريخية على العصف بجميع المكاسب الديمقراطية ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية نمت قوى اجتماعية جديدة ، فالقيادة السياسية للبرجوازية المصرية كانت قد ارتبطت بالقوى الاستعمارية نتيجة لدخول عدد من كبار ملاك الاراضي فيها ، ومن هنا فان نشوء الصناعات الوطنية في الحرب العالمية الثانية وتطورها ، حمل فئات حرة من البرجوازية المصرية ، كانت ترى نفسها تواجه مقاومة من كبار ملاك الاراضي والفئات الاحتكارية من البرجوازية العميلة ومقاومة اخرى من جماهير الشعب التي نمت وزادت قوتها في تلك المرحلة ... وكانت فضائح فساد الحكم تفوح رائحتها .. والجماهير تتململ في ثورة عنيفة .. والسخط ينتشر بين ضباط الجيش وجنوده .. ومن هنا كانت الحاجة ماسة الى :

١ ـ اجراء يسهل اعلان الاحكام العرفية والقبض على القيادات الشعبية من ناحية .

٢ ـ ويشغل ضباط الجيش والجماهير الشعبية عن المطالبة باجلاء الجيوش الانكليزية والاصلاح الداخلي ..

٣ ـ ويحقق مكاسب خاصة للمشتركين فيه .

وقد بدأ التمهيد للحرب الفلسطينية قبلها بسنوات ، وكانت الجمعيات الدينية تعمل بهمة لنشر التعصب الديني ضد اليهود والمسيحيين ، مما كان مثار شكوى للطوائف غير المسلمة ، كما بدأت حملة اغتيال اليهود ونسف منشآتهم الاقتصادية ، بهدف اثارة الروح التعصبية لدى الجماهير الشعبية للحصول على موافقتها على دخول الحرب .

وانفرد الملك باصدار قرار دخول الحرب على الرغم من علمه بأن حالة الجيش لا تسمح بدخول الحرب . يقول اللواء المواوي قائد حملة فلسطين ان وزير الحربية المصرية طلبه من العريش في ١٠ مايو سنة ١٩٤٨ للوقوف على رأيه فيما يختص بدخول الجيش حرب فلسطين « فأفهمته الموقف بمنتهى الصراحة وهو ان الجيش لا يصلح مطلقا للدخول في اي معركة كانت ، وعرضت عليه في احدى مرات زياراتي لمصر ان يحضر للعريش بنفسه ، وفعلا حضر فلم يجد اي شيء في الاسلحة صالحا على الاطلاق للدخول في المعركة فذكرته بالموقف الذي رآه بنفسه بالعريش وما سمعه من جميع ضباط الاسلحة فيما يختص بالحالة السيئة التي عليها الجيش ، فأخبرني ان دولة رئيس الوزراء سيحضر بعد قليل فاذكر له ما تقول» (٦٤) . وعندما حضر رئيس الوزراء اخبره « ان الجيش لا يصلح مطلقا للدخول في اية معركة مهما كانت حالتها ومهما قيل عن اليهود من ضعف فان جيشنا تنقصه كافة المعدات وأهمها الاسلحة التي يستعملها الجنود في المعركة فالبنادق في حالة سيئة » . (٦٥)

ويقول ابراهيم عبد الهادي رئيس ديوان الملك المصري السابق فاروق : « المسألة كانت مسبوقة بدعاية طويلة لدخول الحرب ، وكانت الجامعة العربية منعقدة ، وكانت كل المسائل المتعلقة بهذا الموضوع بين الملك فاروق وبين الجامعة العربية . وانا لم اعلم مطلقا عن دخول الحرب شيء الا حين علم كل الناس » (٦٦) . ويقول الفريق محمد حيدر وزير الحربية الذي دخلت مصر الحرب في عهده : « ان العسكريين لم يجتمعوا ولم يؤخذ رأيهم انما كان هناك اتفاق بين ملك مصر ورؤساء الدول العربية في اجتماع انشاص سنة ١٩٤٧ بأن يدخلوا الحرب » . (٦٧)

لقد كشفت حرب فلسطين بمراحلها المتعددة عن الرجعيةالعربية في صحوة موتها ..

١ ـ فكانت فضيحة الاسلحة الفاسدة في مصر (٦٨) ، دليلا حيا على مدى الاستغلالية البشعة التي وصلت اليها نظم الحكم ، كذلك كان اعلان الحرب فرضا لاعلان الاحكام العرفية واعتقال الاف الشرفاء ومصادرة الصحف الحرة .. كمحاولة لاعطاء الرجعية سنواتتطيلعمرها.

٢ ـ وكان الانسحاب من اللد والرملة ، يكشف عن طبيعة الحرب الانتهازية ، فراح الاف الفلسطينيين والعرب ضحية الغدر ، وضحية اطماع الاستعمار الانكليزي وحلفائه الذين اكتشفوا تحول اسرائيل الى قاعدة اميركية فبدأوا يحاولون خلق قاعدة اخرى انكليزية تضم الضفة الغربية من نهر الاردن ، وشرق الاردن في مملكة واحدة !

٣ ـ وكان ضياع فلسطين العربية التي طالب بانشائها قرار الامم المتحدة بالتقسيم ثم كارثة اللاجئين دليلا حيا على ما يمكن ان يصنعه الاستعمار وعملاؤه بالشعب العربي ..

ومن هنا كانت كارثة فلسطين هي صحوة الموت للرجعيةالعربية ، وصحوة الميلاد للقوى النامية في مصر والبلاد العربية !

ان المظهر الباقي لمشكلة فلسطين هو كارثة اللاجئين العرب واكثر من نصف اللاجئين العرب يعيشون في الضفة الغربية للاردن حيث يعيش ٤٩٩،٦٠٦ لاجئين فلسطينيين يتوزعون في مدن عمان واربد ونابلس وأريس والقدس والخليل ، يعيش منهم ١٣،٢٥٠ لاجئا في المخيمات التي اقامتها وكالة الغوث وعددها ٢٤ مخيما ، في الوقت الذي يعيش فيه ثلاثة اضعاف هذا العدد خارج المعسكرات يعملون مختلف الاعمال في الاردن ، ويتوزع النصف الثاني من اللاجئين بين قطاع غزه ولبنان وسوريا ، ويعيش في لبنان ١٠٣،٦٠٠ لاجيء منهم ٣٠ ٪ يعيشون في خمسة عشر مخيما تابعة لوكالة الغوث .. اما في سوريا فيبلغ عدد اللاجئين ٨٨،١٧٩ لاجئا ، يعيش منهم ١٩،٧٢٥ في عشرة مخيمات ويعيش الباقون خارج هذه المخيمات . ويعيش في قطاع غزه ـ وهو الجزء الباقي من فلسطين بعد أن ضم جزآها الاخران الى الاردن واسرائيل ، حوالي ٢١٤ الف لاجيء فلسطيني ينضمون الى سكان القطاع الاصليين وهم ٨٥٠٠٠ نسمة وبذلك يصبح عدد السكان حوالي ٣٠٠ الف نسمة .

ولقد تطور عدد اللاجئين بتطور الحرب الفلسطينية ، فقبل ١٤ مايو ١٩٤٨ كان عدد اللاجئين ٦٠ الف لاجيء .. أغلبهم جاء من القدس ويافا وطبرية وهي المناطق التي كانت في يد اليهود في ذلك الوقت وفي الفترة التي تلت قيام اسرائيل في ١٥ مايو حتى توقيع الهدنة الاولى ارتفع عدد اللاجئين الى ٣٦٠ الف لاجيء توزعوا بين مصر وسوريا ولبنان والاردن ثم بقي جزء منهم في المدن التي لم تكن قد وقعت حتى ذلك الوقت بين يدي اليهود ـ اللد والرملة والمجدل والناصرة وعكا ـ وظل العدد يرتفع بعد استئناف القتال وبعد توقيع اتفاقية رودوس الشهيرة ارتفع العدد الى ٩٤٠ الف لاجيء .

ويعيش اللاجئون الفلسطينيون في ظروف معيشية في منتهى السوء ، يقول ليلنتال « ففي لبنان مثلا تعيش حوالي ٣٤٣ اسرة في شبيلا في خيام متعددة الانواع والاشكال وعندما تسقط الامطار الغزيرة في الشتاء وتندوب الثلوج على الجبال يقيم هؤلاء اللاجئون ويعيشون وينامون في الجبال وتبني بعض الاسر اكواخا في الصحراء تسكن فيها كل سبعة افراد في كوخ ، ويعتمد كثير من اللاجئين على بيع الخضروات او العمال كبوابين او في اية مهنة اخرى وفي الخيام والاكواخ لا توجد أرض صلبة ، بل انها لزجة ومملوءة بالطين ومعظم الخيام ممزقة وتوجد خرق مبللة بالماء هنا وهناك ، وقد توجد في الاركان بطانية موضوعة على بعض القش لكي تبعث الدفء وينتشر في الخيمة بعض مواقد البترول ، والمنازل بلا اسقف ويعد النساء خبزهن على الارض ويخلطون الدقيق الذي تقدمه هيئة الاغاثة بالماء والخمير اما في الاردن فيعيش اللاجئون في المعسكرات او في الكهوف الموجودة بين السهول الصخرية في جوريا وسماريا ومن هناك يستحيل عليهم رؤية ديارهم وحقولهم وبساتينهم » . (٦٩)

ان مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي الدليل الحي على ما يمكن ان تصنعه الرأسمالية العالمية من اجل تنفيذ مخططها والاستيلاء على اسواق العالم العربي ..

وعلينا ان نحاول فهم المسألة الفلسطينية كجزء من صراعنا الرهيب ضد الاستعمار العالمي وان نعمل من اجل كفاح لا تهادن فيه الاستعمار وقواعده ..

ويوم تنتصر القوى التقدمية في صراعها من اجـــل التحرر .. ستنتصر قضية الشعب الفلسطيني .

القاهرة — **صلاح عيسى**

مراجع الدراسة

★★ تأثرنا في تكوين اطار المعالجة بدراسة الاستاذ **صبحي وحيده** « في اصول المسألة المصرية » وهي الدراسة التي ارتفعت بالمسألة المصرية الى جذورها التاريخية من وجهـــة نظر صاحبها ، اما فـــي الهندسة الداخلية لدراستنا فنحن ندين للاستاذ ابراهيم عامر صاحب « ثورة مصر القومية » بذلك التقسيم الى قوى تعرض من خـــلال صراعها مع غيرها من القوى ، وبالطبع فان مسؤولية الدراسة بأكملهـــا تقع على عاتقنا . هذا وقد حرصنا على ان نورد الحقائق من مصـــادر كلما امكن ذلك ، مكتفين بالربط بينها — فضلا عن اختيارها — بمـــا يخدم نهجنا في البحث .

(١) عبد الله التل — فلسطين وبعث القومية العربية — الدار القومية بالقاهرة — ١٩٥٩ — ص ٦

(٢) نفس المرجع ص ٦

(٣) صادق مسعد المحامي — قضية فلسطين — دار القرن العشريـــن للطبع والنشر — القاهرة ١٩٤٥ ص ٨٢

(٤) سماحة السيد امين الحسيني — **حقائق عـــن قضية فلسطين** ط ٢ — مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين بالقاهرة ١٩٥٦ — ص ٣٦

(٥) مرجع رقم ٣ — ص ٨٣

(٦) ألمر وجر — اليهودية دين لا قومية — اخترنا لك ٥٤ — دار المعارف القاهرة — ص ٢٦

(٧) نفس المرجع ص ٢٣

(٨) عباس محمود العقاد — الصهيونية العالمية — اخترنا لك ٢٧ — دار المعارف بالقاهرة ص ٣٨

(٩) نفس المرجع ص ٣٨

(١٠) نفس المرجع ص ٣٨

(١١) نفس المرجع ص ٤٣

(١٢) نفس المرجع ص ٤٨

(١٣) نفس المرجع ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩

(١٤) مرجع رقم ٨ ص ٩٢

(١٥) نفس المرجع ص ١١٣

(١٦) نفس المرجع ص ١١٤

(١٧) مرجع رقم ٦ ص ٣٤

(١٨) خروشوف — تقرير الى المؤتمر الحادي والعشرين الاستثنائـــي للحزب الشيوعي السوفييتي ص ١١٥

(١٩) اسرائيل كوهين — هذه هي الصهيونية — اخترنا لك ١ — دار المعارف بالقاهرة — ص ١٤

(٢٠) محمد عزة دروزه — تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم — ٣ اجزاء — اخترنا لك ٨٥ — ٨٧ الدار القومية بالقاهرة

(٢١) مرجع رقم ٣ ص ٤

(٢٢) محمد عبد العز نصر — الصهيونية في المجال الدولي — اخترنا لك ٣٦ — دار المعارف بمصر — ص ٢٤

(٢٣) راجع انجيل متى — اصحاح ٢٧ — وسامي منصور — مفاجـــأة خطيرة في الدورة الثانية لمؤتمر الفاتيكان — الاهرام القـــاهرية عدد ٢٨٠٨٤ في اول نوفمبر ١٩٦٣

(٢٤) في الاصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع هذه العبـــارة « هكذا قال الرب الى اسرائيل — في عبر النهر سكن آباؤكـــم منذ الدهر » وقد يفيد هذا ان بني اسرائيل الذين يقررون ان أباهم الاكبر من عبر النهر اي من وراء النهر الذي هو نهر الفرات على الارجح — راجع محمد عزة دروزه مرجع ٢٠

(٢٥) مرجع ٣ ص ٦

(٢٦) جان بابي — استاذ بجامعة باريس — القوانين الاساسية للاقتصاد الرأسمـــالي — ترجمة شريف حتاته وآخرون — دار الفكـــر — القاهرة ١٩٥٧

(٢٧) مرجع ٣ ص ٦

(٢٨) مرجع ٢٦ ص ٤٤

(٢٩) مرجع ٣ ص ٨

(٣٠) مرجع ٢٦ ص ٤٤

(٣١) مرجع ٢٦ ص ٤٤

(٣٢) مرجع ٢٢ ص ٥٦

(٣٣) نفس المرجع ص ١٣

(٣٤) مرجع ١٩ ص ٤٧

(٣٥) مرجع ٢٢ ص ٣٠

(٣٦) ابراهيم عامر — ثورة مصر القومية — دار النديم بالقاهرة ١٩٥٨ — ص ٩٠

(٣٧) ج.ي. عليزرمين — الطبقـــة والامة — دار القلم بسوريـــا — ١٩٥٤ — ص ٤٣

(٣٨) ي. ستالين — الماركسية والمسألة الوطنيـــة — ص ٨

(٣٩) مرجع ٣٧ ص ١٨

(٤٠) نفس المرجع ص ٢٠

(٤١) حق الامة في تقرير مصيرها — ترجمة باشراف دار ابن الوليد — دمشق ١٩٥٧ — ص ١١

(٤٢) نفس المرجع ص ١٢

(٤٣) نفس المرجع ص ٩

(٤٤) لينين — الدولة والثورة — ترجمة فؤاد ايوب (د.) — دار دمشق للطباعة والنشر — ص ٩ ، ١٠

(٤٥) مرجع ٤١ ص ٤

(٤٦) نفس المرجع ص ٩

(٤٧) كارل ماركس — المسألة اليهودية — ترجمة محمـــد عيتاني — دار بيروت — ص ٥٦

(٤٨) نفس المرجع ص ٥٦

(٤٩) عبد المنعم الغزالي — اسرائيل قاعدة للاستعمار وليست امـــة — دار الفكر بالقاهرة ١٩٥٩ — ص ١٨

(٥٠) علي محمد علي — في داخل اسرائيل — كتب قومية — الـــدار القومية بالقاهرة — ص ١٩٧

(٥١) مرجع ٣٦ — ص ٩٠

(٥٢) مرجع ٣ ص ١٢

(٥٣) مرجع ٣٦ ص ٩٠

(٥٤) عميد الامام — الصلح مع اسرائيل — كتاب النيل — القاهـــرة ١٩٥٥ — ص ١٣٦

(٥٥) راجع — طه شرف — الاحداث العربية في تاريخها الحديـــث — واحمد طربين — الوحدة العربية

(٥٦) مرجع ٣ ص ٦٩

(٥٧) نفس المرجع ص ٦٩

(٥٨) نفس المرجع ص ٧١

(٥٩) نفس المرجع ص ٣٦

(٦٠) نفس المرجع ص ٦٩

(٦١) نفس المرجع ص ٧٨

(٦٢) نفس المرجع ص ٨٨

(٦٣) صلاح عيسى — اتجـــاهات الحركة الوطنيـــة المصرية بيـــن ١٩١٩ — ١٩٥٢ — ملحق المساء الادبي والفني ديسمبر ١٩٦٣

(٦٤) المحاضر الرسمية لمحكمة الثورة المصريـــة عام ٥٣ — ١٩٥٤ — محاكمة ابراهيم عبد الهادي رئيس وزراء مصر عام ١٩٤٨

(٦٥) ، (٦٦) ، (٦٧) نفس المرجع

(٦٨) لمراجعة تفاصيل قضية الاسلحة الفاسدة — ارجع الى مقـــالات الاستاذ احسان عبد القدوس في مجلة روز اليوسف القاهريـــة من ٦ يونيو ١٩٥٠ — وكذلك ثلاث مقالات للنفس الكاتب عن الحرب الفلسطينية بعنوان « اني اطالب بالتحقيق مع الفريق محمد حيدر » بنفس المجلة في الاعداد ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، في ٢٤ — ١٠ ، ٣١ — ١٠ ، ٧ — ١١ عام ١٩٥٠

(٦٩) صلاح عيسى — مجتمع المأساة كيف يعيش — دراسة عن مجتمـــع اللاجئين الفلسطينيين — مجلـــة المجتمع العربي القـــاهرية — مايو ١٩٦١ .